جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاي البارود

شعر عبد الله الفيصل
بين
التحليل الموضوعي والتقويم الفني

الدكتور
حسين عبد المعطي حسين عبد الوهاب
مدرس الأدب والنقد في كلية اللغة العربية بالمنوفية
قسم الأدب والنقد

المبحـث الأول
عبد الله الفيصل: حياة وسيرة

عن حياة الأمير الشاعر "عبد الله الفيصل": طفولة وشباباً وكهولة..إلي آخره كتب الكثير. ومع هذا فصفحات الصدارة من هذا البحث تريد أن تستهله بحديث عن بعض معالم تلك الحياة؛ ذلك لأن بينها وبين ما صدر عن الشاعر من فن عروة وثقي وولاء عميقاً. ولا غرو، فنسيج حياته ألهمه فنه، وفنه صدي تلك الحياة، أو من شأنه أن يكون كذلك.

ولعل هذا ما عناه "الفيصل"وكان يرنو إليه طموحه البعيد يقول – في صوت عال ورنين قوي –: "أريد أن يكون شعري صورة طبق الأصل لحياتي، وصدي حقيقياً لشعوري وعواطفي، وآمالي وانفعالاتي النفسية، وذلك هو الشعر"[1]. أي الذي يستحق هذا الاسم عن جدارة واقتدار، أو الذي يؤبه له، ويلتفت إليه. ومفاد هذا أن الشعر ليس عملية يقصد بها تزجية الفراغ، وإنما هو عمل يتغيا أهدافاً ومقاصد. ومقصده ورغبته الظمأى في أن ينقل شعره واقع حياته نقلاً أمينًا، وأن يكون عمله الشعري هذا بضعة من نفسه، فيه نبضه ووجيب إحساسه دون ما زيف أو تصنع.

ومهما يكن فإن هذه الأماني تقف ثم عند الإطار النظري لا تزايله، فأما التطبيقي فهو ما تحاول هذه الدراسة أن تميط اللثام عنه، وأن ترفع الأستار كذلك عن أبعاد ومنعطفات تستخلص من صولته في مسابح الإبداع الشعري.

****

(١) انظر مقاله (أجل؛ أنا محروم) في صدر (المجموعة الكاملة) (شعر) عبد الله الفيصل ص ١٨ – مطابع شركة المدينة المنورة للطباعة والنشر – جدة ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م.

صافح "عبد الله الفيصل" الحياة وعانق نور الوجود في سنة ١٣٤١هـ - ١٩٢٢م في مدينة "الرياض" بين أسرة كريمة المحتد، عريقة الأرومة، يصدح عبر الأفق حبها الشعر والأدب وحفاوتها بهما. إنها الأسرة السعودية المالكة الحاكمة. فأما أبوه فهو الملك الشهيد "فيصل بن عبد العزيز" الذي شغلته عن ابنه تبعات توطيد الملك الثقال، فلم يعش هذا الذي أهل علي الوجود وليداً في رحاب أبيه إلا بعد بلوغه السادسة. فقد راح يعوض ما فاته بثقافة حصلها بالاطلاع الدءوب، وانداحت ثقافته حين أصاب ما أصاب من مدرسة الحياة الكبرىٰ، وكان أستاذه في تلك المدرسة والده، الذي جعل بيته منتدىٰ تهفو إليه قلوب شعراء الحجاز. وقد وجد "عبد الله" في هذه المجالس والمنتديات أنيساً لا يمل حديثه، وجليسًا تستلذ صحبته.ولا ريب في أن هذا الجو – أعني جو المجالس التي كانت مركز إشعاع عقلي و إنعاش روحي – صفي مزاجه وهذب ذوقه، وكان له أكبر الأثر في شاعريته وشعره. وقد عرف للأب هذا الفضل، فقال، نشوان مغتبطا، سارداً ملامح الحياة التي عاشها في بيئته الأولي، وموئله المكين، ومستحضراً أمامنا ملامح ذلك الماضي الآخذ في الابتعاد، قال "والدي (رحمه الله) كان مدرسة جامعة، وكنت أشعر أنه يجب علي أن أنهل منها ما استطعت، بالإضافة إلي أن المناخ الشعري الذي أحاط بوالدي أثر في أكبر الأثر. ومن هنا عرفت محبتي للشعر. فوالدي كان هو أيضاً شاعراً نبطيًا من الطراز الأول، وكانت المساجلات الشعرية تقوم آنذاك في منزلنا بين شعراء الحجاز وكنت أحضر هذه المساجلات وأراقب عن كثب هذه اللغة العاطفية التي تنساب فتطرب لها الآذان والقلوب"[١].

(١) عبد الله الفيصل: حياته وشعره. منيرة العجلاني ص ١٨. دون ذكر دار الطبع ورقم الطبعة وسنتها.

وأما والدته فهي الشيء الذي لا يبرح ذاكرته، لطالما أضاءت حياته وآنست أيامه. إنها الأميرة "سلطانة السد يري". ومعلوم ما لعائلة السد يري من خطر الشأن وصعود المنزلة؛ إذ "لمع كثير من أفرادها، وشغلوا مناصب كبيرة في الدولة، وخاصة أمراء مقاطعات ووزراء ووكلاء وزارة، وهم شديدو الولاء لآل سعود، وكثيرات من أمهات الأمراء السعوديين وزوجاتهم سديريات"(١). والمهم أن هذه الأم أفاضت علي روحه الحبور والبشر، وملأت حياته ألقًا وعظمة، وتشبثًا بأدب النفس الطلي السامي، وتفوقًا علي مغريات الحياة ودواعي الفتنة فيها والتهالك عليها، فنال من عطفها الشيء الكثير، وأوي إليها يستريح ويتزود.. إلي أن طواها الموت، وذهبت مع الذاهبين. نبصره مشدوداً إلي خطوط تلك الذكريات حين يقول:.. "..تولت تربيتي والدتي التي كنت وحيدها في هذه الحياة، فكرست كل جهودها ووقفت حياتها في سبيل تنشئتي نشأة صالحة، وحافظت علي في صدق وإيمان، من الوقوع في مهاوئ الزلـل، وعلمتني – بحق – أن أعرف: من أنا؟غير مذكية في الغرور، ولكن لتعدني لما يتطلبه وضعي في المستقبل ولتفهمني أن علي من الواجبات نصيبًا أوفي من أي نصيب. ولكنها (رحمها الله) دفعت ثمن ذلك باهظًا، صحتها أولاً وحياتها أخيراً. فلها – إذا – الفضل الأول في توجيهي وتربيتي"(٢).

وأما جده فهو الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود، أحد شوامخ عصرنا هذا الحديث، وممن تبوؤا مكاناً عليًا بين قادته

(١) ذاته ص ١٥.

(٢) مقاله سابق الذكر بالمجموعة الكاملة ص١٥.

وملوكه بتضحياته الشاقة وفدائه العظيم. كيف لا ؟ وقد لم شمل أبناء الجزيرة فآضت خلقًا آخر، ينعم بتوحيد من شتات، وانتظمت حبات عقدها بعد أن انتكث فتلها، وبعد أن كان أمرها فرطا:

سلوا الجزيرة عنه كيف وحدها * وصان أرجاءها واستصحب الحذرا[1]

وقد تولي الملك "عبد العزيز" رعاية شاعرنا أول عهده بالحياة "أمدًا لم يزد علي خمس سنوات، تركت في نفسه،علي قصرها، أبلغ الآثار"[2]

كان هؤلاء – إذا – والدًا ووالدة وجدًا – من أبر الناس به وأحناهم عليه، وألصقهم بنفسه. وهكذا فتح عينيه علي مآثر تلك الأسرة، أسرة "آل سعود" التي سارت الرياح بأخبارها، وزحام فضائلها. في وارف نعمتها ولد، وبطعامها غذي، ومن مائها ارتوي، وتحت خمائلها شب، ومن معينها الدفاق اغترف عذب شعره. وإنه ليعلن هذه المعاني عالية مدوية، تياها بأصل يباهي الدنيا به، وأمة كبري لها في المعالي تاريخ حافل. يقول [3]

يا بن عبد العزيز ما نضب الشعـ ** ر، ولا شح في القوافي رصيدي
أنا لو جف في الحروف مدادي ** نزف الحرف راعفا من وريدي
قلمي ما يزال يقطر سحرا ** وخيالي يرود كل صعيد
هو فيض من المشاعر في الصد ** ق، وحرب علي النفاق البليد

(١) المجموعة الكاملة ص٣٩٥.

(٢) من مقاله السابق بالمجموعة الكاملة ص١٥.

(٣) المجموعة الكاملة..ص ٤١٢ – ٤١٣.

قممي ما تزال تختزن الفكـ ** ـر، وتهمي بكل معني شرود
أنا صوت الحجاز من قلب نجد ** وصدي نجد في الحجاز السعيد
فإذا ما شكت تهامة ضرا ** غالبت نجد حرقة التسهيد
هذه أمتي.. وحسبي فخار ** أنا منها سليل آل سعود
وهي مني عصارة الدم في القلـ ** ـب، تغذي أصالتي ووجودي

****

وليس يعني منبته في أحضان النعيم أن الحياة ظلت تقدم إليه كأس سعادتها المترعة، ذلك أنه ذاق بأساء العيش وشدته في مدة من حياته، فطوته الليالي بأحداثها النكر ومآسيها الدامية، فتعرض كما تعرض غيره من بني الدنيا – وكما قال هو –"للنجاح والإخفاق، والغني والفقر، والمتعة والحرمان"[1] فاختلطت ابتساماته بدموعه، وامتزج فنه بحياته.

وعلي ذكر "الحرمان" الذي أورده "الفيصل" في كلامه الآنف يجدر أن أشير إلي أنه لقب نفسه "محروما"! وأطلق علي ديوانه الأول "وحي الحرمان". وغريب أن يصنع ذلك وهو الرجل الذي عاش آمادا في مناعم الحياة وترفها يمسكه أصل راسخ ويسنده جذع قوي. فما باله كثير البث، عالي النشيج ؟! وفيم – إذا – مشكلات العيش ومضايق الأيام التي تحمله من المصاعب والمشاق ما يؤوده ويضنيه ؟ وهب أنه في بعض سنيه عضه الدهر بنابه، ورمته الأيام بصروفها. أفيستدعي كل هذا أن يكون "محروما"؟ وأين

(١) من مقاله السابق في صدارة المجموعة الكاملة ص ١٧.

يكون النعيم ؟ بعيد بعيد أن تطمئن النفس إلي انطباق هذا علي"عبد الله الفيصل" الذي عاش في السعة ونعم بطيبات الحياة !! إنما تتوقعه وتصدقه – علي سبيل المثال – علي هؤلاء الشعراء الجياع من أمثال "عبد الحميد الديب" "وإمام العبد" و"خليل نظير" و"أحمد فؤاد" وأضرابهم ممن حرموا من أكلة شهية، أو رداء نظيف، وممن شاهدوا نعم الله تفيض من حولهم علي من ظنوهم مثلهم أو دونهم، وليس لهم منها مورد ولا فضل، فأطال لسانهم الحقد، وألهب شعورهم الألم، وأمض أنفسهم الحرمان. ولما لم يجد أولهم – الديب – من يمسح الدموع من مآقيه، ويعينه علي وجيع الألم وبأساء الحياة، وينتشله مما هو فيه من ذلة وهوان كانت صرخته التي أرسلها متمنيا الخلاص من هذا كله بالموت الذي لا يتمناه أحد:

ويلرب، ما يومي، وأين منيتي؟! ** أمالي حتي في المنية موعد ؟!

يبادر "عبد الله" فينفض عن خواطرنا هذه التساؤلات فيقول: "محروم! كلمة أثارت وتستثير كثيرا من التساؤل والاستغراب لا سيما بين القراء الذين يستطيعون تطبيق الاسم علي الشخصية التي تحمله أو تتواري خلفه لأول وهلة. فهل أنا "محروم" حقا؟إن الجواب سيكون بالسلب. لماذا؟ لأن الذي يحمل هذه الصفة، أو يستتر وراءها، أمير، شاب في مقتبل العمر، غني، وزير لوزارتين، من أسرة حاكمة، إلي غير ذلك من الصفات التي تمنع الحرمان وتقضي عليه. هذا هو الوجه الظاهر لماضي وحاضري، ولكن متي كان الظاهر كافيا للحكم علي الأشياء ورسم حقائقها و أوضاعها ؟ ومتي كانت الظواهر تعبر عن البواطن ؟ إذا لم تصدق ذلك فإليك الصفحة الكامنة من تاريخ حياتي: فأنا لم أولد وفي فمي ملعقة من ذهب كما يظن الكثيرون. قبل أن أتخطي السنة

الأولي من عمري أبعدت الظروف أبي عني سنوات كثيرة متعاقبة لاشتغاله بالحروب والغزوات وشد أزر أبيه وتوطيد ملكه. ولمع الصبا في نفسي – وأنا علي هذه الحالة – فلمعت معه أحاسيس وعواطف وثارت لثورته نوازع قلبية لم أستطع كبتها وعجزت عن تحقيقها، فتركت في نفسي أبلغ الآثار من الحرمان حتي الآن،ولهذا فأنا لا أزال محروما. فهل وعيت ذلك – أيها القارئ – ولكن أرجو – ولا يزال الكلام للفيصل – أن أتفلسف قليلا في معني "الحرمان" فالحرمان مرادف للشقاء أو بداية له أو هو دليل عليه. والشقاء عكس السعادة. والسعادة ما هي ؟ وفي أي شيء تكون ؟ هل هي في المنصب والجاه ؟ أم هي في الثروة والمال ؟ إن كانت كذلك فأنا سعيد كل السعادة. ولكنك تعلم – يا عزيزي القارئ – أن السعادة ليست في كل هذه الصفات والمميزات. إن مقرها في النفس ومنبعها من الإحساس. فأنت سعيد إذا أحسست بالسعادة ولو فقدت كل أسبابها الظاهرة ومقوماتها المعبرة. وأنت محروم من السعادة إذا فقدت الإحساس بها ولو اجتمعت لك كل مقوماتها واعتباراتها. لماذا ؟ لأن إحساسك متأثر بعوامل أخري من الألم والأسي تشغله وتستأثر به عن الشعور بالسعادة. ولهذا – وحده – أنا محروم. وتفسير ذلك سبق أن شرحته لك في صدر هذه المقدمة [1].

علي هذا النحو فهم الحرمان والشقاء والسعادة، ولم يكن صدره ضيقا حرجا بما قال. وهو بهذا الإيضاح يقدم لنا – في لهجة صادقة، أو هكذا أراها – صورة من حياته، أو من متقلبه فيها، إذ إنه لم يحاول أن يكتم منها شيئا، ولم يجهر بها انتحالا لتواضع يروي به ظمأ إلي العظمة في نفسه. ولأمر كهذا كان قول "مارون عبود" يخاطبه:"لم تحل عظمتك

(١) السابق ص ١٣ وما يليها.

دون البوح بأسرار قلبك البشري.. إنك شاعر مخلص كبير باح واستراح، وأزاح الكابوس الرابض علي باب الوجدان " [١].

والذي يتراءىٰ لي أن كلام "محروم" وجيه لاعتبارات متعددة:

أولها: أنه يدفع أظانين من ظنوا أنه بوصفه أميرا تعابث بالذهب النضار في طفولته، وأن وجوه اليسر والترف تطامنت إليه فابتسمت له الدنيا علي الدوام، علي ما ألمحت سلفا. ومن يدري فلربما كانت وجوه الترف وأسباب السعادة وراء تعميق حرمانه وعذاب روحه. "لقد ولد الجاه والمال والإمارة لدي الشاعر عقدة الشك.. فهو يشك فيمن يعامله من الناس وفيمن يظهر له الحب والولاء" [٢]. ويزداد هذا المعني أو الاستشفاف تأكيدا ورسوخا في قول "صلاح لبكي"[٣] "لعمل أعمق ما في مأساة "محروم" أنه لا يستطيع الإطلال عليك إلا من وراء أمير شاب في مقتبل العمر، غني، وزير لوزارتين، من أسرة حاكمة، فهو لا يعرف ما وراء معاملة الناس له. فهل يكرمونه لنفسه، لأنه إنسان يستحق التكريم عن جدارة ؟ أو لأنه يتمتع بالمركز الخطير، والنفوذ الكبير، والمال الوفير ؟ بل ما أفجع الحرمان الذي يحول دون المرء وحقيقة ما يكنه الناس له كإنسان ! لشد ما أوجعه! إنه يأبي إلا أن يظل صاحبه رهين غربتين!غربة نفسه في الأرض،وغربة مؤاخاته لمن لا يعرف مدي الصدق في مؤاخاتهم له ! لكم يجب أن يكون هذا المحروم محروما!" .وثمة سر آخر من أسرار شكه وشعوره بالحرمان، ضاعف من

(١) جدد وقدماء ص ٢٩٨ وما يليها. دار مارون عبود ودار الثقافة، بيروت. ط ٤: ١٩٧٢م.

(٢) عبد الله الفيصل: حياته وشعره ص ٥١.

(٣) من مقال له بعنوان " هذا المحروم " في صدارة المجموعة الكاملة ص ٧.

أوصابه وزاد في بلابله ولوعته. أفصح عنه في قوله[1] "أحببت أربع مرات، وكنت (فاشلا) في حبي خلال المرات الأربع.. ومن هنا شعرت بعقده تجاه الحب.. الحب الصادق من الطرف الآخر، وربما كان هذا هو أحد أسباب شعوري بالحرمان، وأحد أسباب شكي الدائم في صدق الحب والحبيبة ". ولعلي واجد صدي هذا في قوله[2] عن الحب:

وما كان لي منه سوي وهم عاشق ** أضاف إلي المحروم آهات حرمان

وفي هذه القصيدة [3] الرائعة:

ردوا سهـــام الجفون ** عن قلـــبي المسكين
لا توقظـــوها جراحا ** أغفي عليـــها حنيني
ولا تعيـــــدوا عذابي ** ولا تـــزيدوا شجوني
فقد بذلـــت شبابي ** ضحية للـــــعيون
أما رحمـــتم حطاما ** ناداكم بالأنـــــين
مروعات خـــــطاه ** بين المـــني والظنون
يرجو ويخشي هواكم ** ما بين حين وحين
ويبسم الثغر منه ** علي فؤاد حزين

(١) عبد الله الفيصل: حياته وشعره. ص ٥٢.

(٢) المجموعة الكاملة ص ٣٨٠.

(٣) المجموعة الكاملة ص ٨٥ – ٨٦. من قصيدة " ردوا سهام الجفون ".

تبينوها فـــــإني ** غير الذليل المهين
وإنما هـــــو حبي ** أفضي بسري المصون
فلتسمعوه نشـــيدا ** مجدد التلـــــحين
في صـــمته ولغاه ** أثارة مـــن فتون
وفي لحـــاظي دليل ** علي أساي الدفين
كتمته وغـــرامي ** بـــاد كصـــبح مبـــين

مني صاحبنا بصدمة عنيفة، وقوبل إخلاصه وصدقه في حبه بالخديعة والجحود والنكران، وآه منها ، فشك وتألم وتحسر. أما عشاق فنه فظفروا من هذا كله – فوق ما لفت إليه – بنجوم لوامع، كهاتين الفيصليتين "عواطف حائرة"(١) و "بريق المجد"(٢) وغيرهما مما يعد نسقا جديدا من روحه، ولونا فريدا من فنه المطبوع.

وثانيها: أنه يفسر بعدا من أبعاده الحياتية يتمثل في اتقاد عاطفته وشدة حساسيته. وأن الحرمان لم يكن يشغله فيصده عن جمال الفن، أو يصرفه عن الإبداع الفني. بل كان – من بين ما كان – وراء ما صاغ من در، وما نظم من خرائد حسان. لم يكن عامل حجر وتعويق، بل كان مثير انطلاق وسبح مديد.وذلك كسب أدبي كبير.

وثالثها: أنه يمكن الدارس من أن يقف علي مشارف الحقيقة – حقيقة أن الحب ترك في حياته وشعره آثارا عميقة لازمته طوال حياته – وأن يقضي في الفن عن روية وبصيرة.

---

(١) ذاته ص ٤٤ وما بعدها.

(٢) نفسه ص ١٨٧ وما بعدها.

وبعد، فليخفف المرء من حنقه علي حظه، فما السعادة – كما يري الأمير – في مال أو منصب أو مجد، إنما هي في الإحساس بها، المتدفق من أعماق النفس العامرة بالرضا، المتوهج بالروح المؤمن بالقناعة. فقد يشعر بالسعادة الفقير المعدم، وقد يعيش في الشقاء ذو القناطير المقنطرة من الذهب والفضة. ولله في خلقه شئون!.

******

وإلي التأثر بالمربي والنشأة، وإلي الإحساس المتوهج والوجدان اليقظ اللذين عملت البيئة وما يسودها من رقة الحاشية وصفاء المنبع علي إخصابهما وإلي قراءاته الواسعة في تراث العربية الزاخر، إلي هذا جمعيه ثمة عامل له وزنه في صقل شاعريته، والوصول بإنتاجه الشعري إلي طور من الرقي عظيم. وهو أنه كان مفتونا ببعض المقاويل من الشعراء العرب القدامى والمعاصرين ممن حفظوا تراث اللغة، وجددوا شباب الأدب، وكان لهم في عالم الشعر جلال وسلطان، فملأ حافظته وخياله وعقله بمعاني هؤلاء النابهين وألفاظهم التي استعملوها، محاكيا إياهم ومترسما ومحتذيا. والإفصاح عن تأثره بعناوين النبوغ الأدبي هؤلاء سأدخره لمكانه علي هذه الصفحات.

****

هذا، وقد "عينه جده الملك عبد العزيز وكيلا لنائبه في الحجاز، وكان نائبه في الحجاز الملك فيصل بن عبد العزيز، وكان عبد الله ينوب عن والده في إدارة مجلس الوكلاء. وفي عام ١٣٧٠هـ عين وزيرا للداخلية ووزيرا للصحة في آن معا، لفترة من الزمن، ثم تفرغ فيما بعد لوزارة الداخلية، ثم ترك العمل الرسمي، وتفرغ لأعماله الحرة والقراءة والاطلاع"[١] عام ١٩٥٨م[٢].

(١) عبد الله الفيصل: رحلة مع شعره. يوسف السالم ص ١٨ ط٢ – ١٤١٥ هـ مطابع الحميضي بالرياض.

(٢) عبد الله الفيصل: حياته وشعره ص ٣١.

وما من ريب في أن هذه المناصب هيأه لها:" قربه من والده الذي أعطاه الكثير من الصفات القيادية والإنسانية والاطلاع الواسع علي الأمور السياسية والاقتصادية والداخلية" [1] كما هيأه لها – علي حداثة سنه – استنارة عقله، وذكاء قلبه، ونهمه الزائد لاستيعاب المعرفة الإنسانية.. إلي غير ذلك من أمائر كفاءته.

وأياما كان الأمر، فـ:مناصب الدولة والعمل الحر لم يشغلاه عن حبه للشعر. ومن هنا تبدو لنا ملاحظة مهمة وهي أن الشعر في حياة عبد الله الفيصل دفق إلهام وشعور متأجج وإحساس عميق بالكلمة، فالشعر في حياته رفيق رحلة الأيام بكل ما تحمله وتحمله للإنسان"[2].

****

وقد خلف- من بين ما خلف – ميراثا شعريا فصيحا تمثل في ديوانيه "وحي الحرمان"."وحديث قلب" اللذين ضما في مجموعة واحدة، أطلق عليها "المجموعة الكاملة" وظهرت للنور عام ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.أما الأول فيغلب عليه الطابع الوجداني؛إذ يتناول الحب في أسمي نزعاته،وأشرف مناحيه، ويكشف للقارئ عما كان يختلج في نفس الرجل من شوق وحنين، ولقاء وفراق، وحيرة، وشكوى كاوية.. ويقدم للقارئ كذلك أبدع ما هتف به خاطر "الفيصل" وصورته عدسته اللاقطة في هذا المجال الشائق في وداعة نفس، وحلاوة روح. وقد صدرت الطبعة الأولي منه عام

(١) صحيفة " الوطن " السعودية ص ٤٢ العدد ٢٤١٣ – السنة السابعة ٢٢ – ربيع الآخر ١٤٢٨ هـ – ٩ مايو ٢٠٠٧ م. مؤسسة عسير للصحافة والنشر – السعودية.

(٢) عبد الله الفيصل : حياته وشعره ص٣١.

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٣م والثانية عام ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠ م. وأما الثاني فيضم قصائد وجدانية ووطنية ودينية. وقد صدر عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨٢م. وهذان الديوانان وعاء هذه الدراسة ولبها. عليهما تعتمد، وإليهما تستند.

******

هذا، ولما انتعشت المملكة اقتصاديا قدر لها أن تستقبل عاما بعد عام أفواجا من العرب وغير العرب للعمل بها أو للتعليم أو لغيرهما من مقاصد وأغراض. كما هيئ لأبنائها أن يأخذوا سبيلهم الصاعدة إلي الخارج، مطلين ثم منفتحين علي الدنيا بأسرها، متصلين بالمراكز الثقافية، وبالبيئات الاجتماعية والأدبية. وعبد الله الفيصل أحد هؤلاء الذين اتصلت أسبابهم ببيئات أدبية واجتماعية شتي،فكثرت رحلاته، وتنوعت تنقلاته، فزار مصر، وظل متصل القلب بها، بل "نافس أمير الشعراء" "أحمد شوقي" في حبها" [1] ولبنان وكان له مع بعض أدبائها وشعرائها أواصر حميمة، ومنهم علي وجه التحديد الشاعر "صلاح لبكي" الذي كتب له مقدمة ديوانه "وحي الحرمان"، كما شارك في المنتدىٰ الأدبي في(جرش) بالمملكة الأردنية الهاشمية. كما زار العراق، وكان في صدارة المشاركين في مهرجان"المربد" الشعري السابع ببغداد ١٩٨٦م، وأخذ يمخر عباب الدنيا وكان أمامه تجارب غيره، فازداد بصرا بأحوال الدول وأخلاق الشعوب، وهيأ له هذا التجوال والاحتكاك سعة أفق، ورحابة معرفة، واكتساب عادات وطبائع وأنماط معيشية وإجادة في طرحه ورؤاه.. وما كان يستطيع أن يحقق هذا كله من غير هذه الأسفار.

(١) صحيفة الوطن ص ٤٣.

وعلي صلة بهذا الاحتكاك الثقافي، والنشاط الأدبي الذي لا يزال في وعي التاريخ من أخباره الكثير عاصر شاعرنا اتجاهات أدبية ونقدية جديدة نجمت عنها تحولات شتي في حياتنا الأدبية، قادها بعض كبار الأدباء، ممن امتاحوا من الثقافة الأوربية أسسا أدبية ومقاييس نقدية جديدة علي أدبنا فراحوا يحملون راية التجديد، ويدعون إليه بحماس وقوة، وغدت هذه الاتجاهات مدارس أدبية، لكل مدرسة وجهة محددة وسمات مميزة. عاصر مدرسة شعراء "البعث" ومدرسة شعراء "الديوان" ومدرسه شعراء "المهجر" وجماعة "أبولو"، والثورة العنيفة علي قيود الوزن والقافية، والتخلص من عمود الشعر العربي الموروث علي يد ما يسمي "الشعر الحر".

ومن هذا الزاد الخصب سرت في شعره ملامح من بعض هذه التيارات والمذاهب، كما سيتضح في التناولات الفنية.

ومع أن هذه التيارات والمذاهب أضافت الكثير إلي إبداعه الأدبي فإنه لم يلح علي اتجاه بعينه علي أنه المذهب الذي لا مذهب سواه، ولم يكن "متتبعا لخطي أية مدرسة معينة في الشعر، ولا لأي منهج خاص لشاعر معين، وفي ذلك يقول: إذا كنت أؤكد أنني غير متأثر أو متتبع لمدرسة طرفة بن العبد وامرئ القيس في الشعر الجاهلي أو لمدرسة شوقي،فهذا لأن هناك اختلافا كبيرا بيني و بينهم، ولكن رغم ذلك فلا أستطيع أن أنفي التأثير (اللا مباشر) في شعري، وذلك من قراءاتي المستمرة لهؤلاء ولغيرهم من الشعراء، وربما كانت قراءاتي المتعددة والكثيرة هي السبب الذي أعطي شعري رونقا خاصا من الجزالة والقوة "[1]. فحسبه من تجربته الشعرية أن تكون مرآة لما في نفسه دون أن

(١) عبد الله الفيصل: حياته وشعره ص ٣٠.

تستعبده طقوس معينة، أو أشكال خاصة. وكأنما الفن الشعري في نظره – أو هكذا أفهم من سياق كلامه – شعور جياش قبل أن يكون قاعدة مرعية وأصلا ملتزما.

*****

هذا، ولم يكن منعزلا عن الوجود الموار من حوله، عن قضايا العرب وهمومهم، بل شاركهم أفراحهم وأتراحهم. وكان لقضيتهم الكبرى "فلسطين" صدي فى فنه، كما سيرد علينا في حينه.

ويسير مع الزمن، فينال الأوسمة والجوائز داخل المملكة، ومن ذلك: "حصوله علي جائزة الدولة التقديرية في الأدب بالمملكة العربية السعودية عام ١٤٠٥ هـ"[١]وخارجها؛ إذ "منحه الملك (الحسن الثاني) عاهل المغرب العضوية في الأكاديمية الملكية المغربية عام ١٩٨٦م كواحد من أبرز الشعراء و الأدباء العرب"[٢]. وتكرمه"القاهرة" سنة٢٠٠١م، وبيروت سنة٢٠٠٢م وفي مدينة "أبها" وبرعاية الأمير "خالد الفيصل" ودار سعاد الصباح تم تكريمه من خلال برنامج استمر ثلاثة أيام بدأ في ٢٠٠١/٨/٢٩ م بفندق قصر "أبها"؛ تقديرا لإبداعه الشعري وعطائه الثقافي وإسهامه بقلمه وماله وجهده وفكره في دعم كل مثقف، ومساعدة كل أديب في المملكة وخارجها" [٣].

وبعد جوب الآفاق، والعمل في انطلاق وهن جسمه وهزل:

---

(١) صحيفة (الوطن) العدد سالف الذكر ص٤٢.

(٢) ذاته والصفحة.

(٣) ذاته ص ٤٣.

وسرت في الجو أشباح الوداع ** وتنادي كل شيء للرحيل

وفي أعوامه الأخيرة انتابته العلل وهجمت عليه الأمراض. وفي أيامه الأخيرة ذوي غصنه وذبل فننه، وأغمض جفنه وتوقف نبضه:

أشاب الصغير وأفني الكبـــير ** ر كر الغداة ومر العشي

نعم، إن تتابع ركب الحياة هو عينه أكبر النعاة. ويودع عبد الله الفيصل دنيانا، ملبية روحه نداء ربها في مدينة (جدة) يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شهر (ربيع الآخر) سنة ألف و أربعمائة وثمان وعشرين للهجرة – الثامن من شهر(مايو) سنة ألفين وسبعة للميلاد.

في "الرياض"خرج" عبد الله الفيصل" إلي نور الوجود محفوفا بنظرات الأمل. وفي "جدة" ودع الدنيا مبللا بعبرات الأسي، وحسرات الذكري. وفي "مكة" المكرمة وتحت ثراها الطاهرهدأ جثمانه واستراح:

لعمرك ما واري التراب صنيعه ** ولكنما واري ثيابا وأعظما!

تغمده الله برحمته، وأنزله منزلة الأبرار في نعيم جنته.

المبحث الثاني
اتجاهات شعره

قلبت نظري في شعره فإذا هو شعر وجداني. ولئن توزع تجربته الإبداعية غزل ورثاء وشكوىٰ وحديث عن الوطنية إن الأعم الأغلب من إبداعه الشعري ذاتي وجداني، يبين عن مشاعره، ويعبر عن نفسه، فمنها ينطلق وإليها يعود. وعمدتي في هذا الذي استبان لي: النص الشعري. فالصبر علي مضايقه وإدمان معايشته آصل في تناوله واستبطان غوره وتلمس عناصر الجمال والفن فيه، دون محاباة أو جور، ودون تعصب لمبدعه أو عليه. وهذه مسألة مقررة لا تحتمل الإطالة، وبدهية لا يعوزها كثير تنبيه لكمال وضوحها في أذهان الدارسين.

******

فإذا ما انعطفت إلي شعره الوطني ألفيته يحتل من فنه جانبا. ولئن كان من غير المقبول أن يقف الأديب أي أديب موقفاً سلبياً بإزاء قضايا وطنه لقد رأينا الشاعر يلح علي تغذية الوجدان الوطني، معبراً عن شئونه، مناصراً قضاياه، مالئًا الصدور بروح القوة والبطولة والفداء والتضحية. وإذا كانت الوطنية تعني "ارتباط الشخص بوطنه وتعلقه به، باعتباره مثوىٰ آبائه و أجداده"[1] فإنها عند "الفيصل" لا تقف عند حد هذا المدلول، الذي يعني حب المرء ثري بلده، وحفاوته بأرض آبائه وأجداده، (المملكة العربية السعودية) ولكنها تمتد لتشمل الوطن العربي بأسره. والحق أن شعره الوطني

(١) انظر: القومية العربية في الشعر الحديث. د. أحمد الحوفي ص ٨ دار نهضة مصر. القاهرة. دون تاريخ.

يدور في هذين الإطارين: إطار الوطن الصغير (السعودية) وإطار الوطن العربي الكبير. وهما إطاران متداخلان في فكره وفي قصائده الوطنية، ومتكاملان يكمل أحدهما الآخر، ولا يستغني أحدهما عن سواه. وإن جاء حديثي عن كل إطار علي حدة، فذا أمر تمليه طبيعة الدراسة ومنهجيتها.

*****

يلهج الشاعر بحب بلاده، ويعيش بها خاطرًا لا يغيب، ويتغني بذكرها، ويصرف همه إلي نزعاتها التطلعية، ويدرأ عنها عاديات الأيام، باذلاً في هذه السبيل – ساعة النداء – النفس والنفيس، وواجداً في هذه المقاصد العليا التي تلح عليه وتعيش بين جوانحه نشوة بالغة وسعادة غامرة:

نسيت ما كان من حب وموجدة ** شغلت عنها بما يصبوله وطني !

روحي الفداء له إن قيل تضحية ** إن الشقاء بما يعليه يسعدني

لن تعرف اليأس روحي والشباب يد ** إذا دهتني دواهي الدهر تسندني

ولأنه تمرس بمواقف الحياة، وتلقن منها دروساً نافعات انبري يحثهم علي التزود بالعلم يسعدهم وينير عقولهم إذا أظلمت، ويلهب نفوسهم إذا خمدت العزائم، ويمضي يذكرهم بسابق أمجاد آبائهم الذين ملأوا الدنيا علماً ونوراً، وتفوقاً حضارياً بهر الغرب فأفاد منه في كل ميادين الحياة، وكان سببًا من أسباب النهضة الأوربية الحديثة. فليت الأبناء يعيدون هذا العهد الزاهر، أو يتسامون إلي أن يقعوا قريباً من مآثره ومناقبه.

يقول[1]:

(١) المجموعة الكاملة ص ٦٧.

فيـا بنـي وطنـي بـالعلم سـعدكمو ** ولـيس في الجهـل إلا فـادح المحـن
فعرفوا الغرب مـا للشرق من منن ** فـيما مضيـ وأعيـدوا أطيـب المـنن

لقد عزف علي هذا الوتر في غير ما موضع من شعره، فمضي موجهاً بني قومه – وبخاصة الشباب – إلي أنه لا قيمة لعقول رانت عليها الجهالة، وحجب عنها إشعاع المعرفة. إن بناء النهضة وتسنم ذروة العلا والمجد إنما يكون بالتزود بالعلم والعيش في أفيائه، ففي ذلك صلاح حال الوطن ومآله. وإنما خص الشباب بالنصائح؛ لأنه زمن الانطلاق في الحياة، الانطلاق الذي لا تقف أمامه العوائق أو السدود. وهاهي ذي أبياته التي لا يزال لها في النفوس أثر وبالقلوب نوطة:

مرحـي فقـد وضـح الصـواب ** وهفـا إلـي المـجد الشـباب
عجـلان ينتـهب الخطـي ** هـيمان يستـدنى السـحاب
في روحـه أمـل يضـي ** ء وفـي شـبيبته غـلاب
قـد فـارق الجهـل العقيـ ** م وهـش للـعلم اللـباب
ورنـا إلـي مستـقبل ** يرقـي لـه متـن الصـعاب
قـد راح يسـتهدي العـلا ** ويصـارع المـوج العبـاب
في الأرض أو في البحـر أو ** في الجـو فـوق ذري الضـباب
ذاكـم – لعمـري – عـدة الـ ** وطـن الكـريم المسـتطاب[1]

(١) ذاته ص ٣٨ ، ٣٩.

"وهو إذ يطمئن إلي وعي الشباب وعمله وجديته في خدمة الوطن الحبيب وأن تضحيته لم تذهب هباءً يعرب عن إحساسه بالتكريم والتقدير. وهل للناصح المخلص من جزاء علي نصيحته أهم من أن يري هذه النصيحة وقد أخذ بها وآتت ثمرها في الوقت المناسب ؟ إذن ليسمعوه وهو يخاطبهم قائلا:

كرمتـــــــموني دائـــــما ** فلكـم حيـاتي يـا شـباب

وهكذا يقدم الشاعر المثل الأعلىٰ للعطاء: فكأنه يقول للشباب: إن الحياة هي ما يجب أن يعطي لهذا الوطن. وها أنا مستعد لهذا وقد رأيت ما رأيت منكم من وفاء للكلمة المخلصة التي قلتها وفاء لهذا الوطن المتمثل فيكم " [1].

******

وكما انتفضت فيه روح وطنية باركت وثبة الشباب ونزعتهم إلي العلم والعلا انتفضت تلك الروح تشيد بأعلام الكفاح والوطنية من أبناء هذا الوطن. وفي طليعة هؤلاء والده الذي يتنفس برئته، ويبصر الدنيا بعينيه ويتيه بانحداره من أرومة معرقة:

عشت لي يـا فيصـل الحـق الأبي ** والـــداً يختـــال فيـــــه نســـبي

وأري الـــــــدنيا بعينـــــه دني ** من بطولات وفضـل مخصـب [2]

ولشد ما امتلأت به نفسه فخاراً بوالده، ببطولته، وجهاده الظافر، وأناته وحلمه، وكونه أسوة حسنة، ومقصد من جار عليه الزمان. وحيثما نظرت رأيت سمات الوطنية

---

(١) عبد الله الفيصـل: رحلـة مـع شـعره ص ٥٨. والبيـت المستشـهد بـه (كرمتمـوني ...) طالعـه في: المجموعة الكاملة ص ٤١.

(٢) المجموعة الكاملة ص ١٢٦.

عند هذا الملك في أسمي معانيها، فهي سمات تلتقي عندها أماني العرب، ويكفي أنها سمات يرف عليها عز الإسلام، وهدي النبي محمد (ﷺ):

علـم أنـت عـلي هـام الرجـا ** تلتقـي فيـه أمـاني العـرب

عـزة الإسـلام رفـت فوقـه ** وحبتـه الهـدي عـن خـير نبـي[1]

وإذ يكشف هذا الجانب عن صفات وضيئة تحلي بها جيل سالف عمل في صمت وعزف عن الأضواء، وتلك أمة قد خلت، تتزاحم في ذهن الشاعر أوضاع منتكسة وصم بها الجيل الجديد من الشباب أو أكثره. ولكم يأسي الناظر لما يشكل ملامح الوجود في هذا الجيل، من ثقافة خاوية، ووقت مضيع، وزهو واستعلاء، وتطاول علي الأصلاء، وترنح في المسير.. ألا فليعلم هؤلاء أن من دواهي هذا الانحراف أنه يلفظ أهله علي ساحل الحياة فلا يخوضون العباب ولا يغوصون في الجوهر، وأنه يدفعهم إلي هامش الوجود فلا يكون لهم في متنه مكان يرمق ولا شأن يذكر.

ومهما يكن من شيء فقد أدمي هذا كله أحاسيس الأمير، حتى عاد من هول تلك الصدمة يتساءل: أين صورة اليوم القاتمة المتخاذلة من صورة الأمس المشرقة الشامخة. وبين أمس دابر وحاضر مقيم يقول في نبرة من اليأس والأسى:

والـدي عفـوك عنـي إن أكـن ** مـثقلاً بـالهم بـادي التعـب

تائـه الفكـر بـوادي حـيرتي ** واجمـاً كالحـاضر المغـترب

إن عصراً مـا جنـاً نحيـا بـه ** يوصـم الفضـل بـه بالكـذب

(١) ذاته والصفحة نفسها.

صـــير الجيـــل الجديـــد المرتجـــي ** غارقـــاً بـــين اللهـــا واللعـــب
وقليـل مـن شـباب العصرـ مـن ** يتقـــــــي الله بنيـــــــل الأرب
والـــدي عفـــوك عنـــي إن أقـــل ** عصـرنا عصـر نعـــيم للغبـــي
أيـــن جيـــل اليـــوم مـــن آبائـــه ** يـــوم عاشـــوا للعـــلا والأدب
يـــوم كـــان الخلـــق في جـــوهره ** غايـــة يســـعي لهـــا في الطلـــب
يـــوم كـــان الغـــرب في مجهلـــة ** والنهـــي عـــن شرقنـــا لم تغـــب
ويـــل هـــذا الجيـــل مـــن تاريخـــه ** ويلـــه مـــن مشـــيه المضـــطرب [1]

ولا يفوت "محروما" ما لجده علي هذا الوطن من خير يكنفه من كل ناحية، وتهب عليه نسائمه من كل اتجاه. وإنه ليمضي في ذكر مناقبه وشمائله اللطيفة وهي مشهورة مذكورة وأعلاها وأغلاها أن سبيله لإقامة ملكه الأشم ليست الشجاعة الفائقة فحسب، وإنما القلب التقي، والخلق الرضي، والسلوك الرشيد كذلك؛ وإذا خطر لك أن تسأل من هذا ؟ أجابك الواقع مشيراً إليه في فخار:

هو "عبدالعزيز" خير مليك ** حصن الملك بالسلوك الحكيم
جامع الخير والبطولة والإقـ ** دام بالخلق والفؤاد الرحيم
زادك الله متعة وازدهاراً ** وشمولا لكل خلق قويم
فيك تزهو الرؤى ويخضوضر الفكـ ** ـر ويغدو الظلام غير بهيم
ويشع الحجى ويأتلق الوعـ ** ـي علي وهج خطك المستقيم

(١) ذاته ص ١٢٩ وما بعدها.

وفي إطار هذه الفكرة يبمم صوب ساحات المصانع وميادين الإنتاج، تجاه أعمال عمه الملك "فهد" فيري أنها تملأ أقطار النفس فرحاً واستبشارًا؛ إذ تتدفق ينابيعها الثرة بفيض زاخر تتعدد روافده في عطاء وسخاء:

وأطلت بشائر الخير تترى ** وتوالت مظاهر التجديد [1]

فتلفت إلي الصناعات وانظر ** كيف أعطت و أرخصت كل غال

والزراعات كيف طابت وغطت ** بمساحاتها بحور الرمال

وانظر الأرض والبيادر تهتز ** بحب الحصيد مثل التلال

والميادين بالمغاوير تزهو ** بسلاح يدك صم الجبال [2]

ولا يلبث أن يحمله علي أجنحة محلقة، ليضعه في مكانه ومكانته من السمو، ومن تلك الرفعة التي اتصل بها آباؤه وأجداده، هؤلاء الذين سجلوا بمداد من نور صفحات وضيئة مشرقة، أفعمت بالخلق العظيم، والحسب الرفيع. ولا يفتأ يذكر بعد ذلك أنه – الملك " فهد" – الرجل الذي يعول عليه الناس في الأزمات والكروب، ويلجئون إليه إذا غشيتهم النوائب والأرزاء. وهذه لوحة استطاعت ريشة الأمير أن تفتن فيها، وتضع الأصباغ والزيوت فوقها، فجاءت منسجمة متآلفة متسقة:

أيها العاهل المفدي سلام ** لك منا وباقة من ورود

إن عصراً من التفاهم قد هل ** وألقى بظله الممدود

---

(١) نفسه ص ٤٠١.

(٢) ذاته ص ٤٢٦.

فاهنـأ اليـوم بالريـادة والنصـ ** ر، وبشرـاك بالسـلام الأبيـد
وهنيئـا لنـا الـذي نحـن فيـه ** مـن رفـاه وسـؤده مرفـود
أمـم تسـتجير مـن شـظف العيـ ** ش لتحيـا عـلي الجفـاف البليـد
وشـعوب تشربت وهـج الشمـ ** س وأخـري تسـمرت في الجليـد
كلهـا تشـرئب نحـوك شـوقا ** وامتنانـا لسـعيك المحمـود
صرت فيهم كهاطـل المـزن في القحـ ** ط، وروح الربيـع للعنقـود
والحجيج الغفـير كـم ركبـوا السهـ ** ل إلي البيـت في اتسـاق وئيـد
وجـدوا الأمـن في رحابـك واللطـ ** ف وذاقـوا حـلاوة التوحيـد
جدت طوعـا بـما ادخـرت مـن العـز ** م وأفـردت كـل جهـد جهيـد
وصـنيعا بـذرت في عـالم الأمـ ** س سـتجنيه في الغـد الموعـود [1]

ومن حب الشاعر وطنه إشادته بمحاسن بلاده، وهيامه بمعالمها. ولذلك أراه – وقد كان خارج وطنه – يحن إلي تلك المعاهد، ويعشق فيها ما وقعت عليه عينه ويسترجع ذكريات الربع والخلان تنفحه بعبيرها الحلو، ورياها الآسرة، مما أرهف منه الحس، وصقل فيه الخيال. وسرعان ما يهرع إلي الطبيعة يسقط مشاعره علي مظاهرها، ويبوح لشخوصها بما يعتمل في صدره من خواطر، ويلوذ بالطير يشكو إليه آلامه وقلق روحه وغربته، واجداً فيه صدرًا حانيا، ويحدوه الشوق إلي المواقف والذكريات فيجترها، ويستعرضها موقفًا تلو آخر، وهو في أثناء ذلك إنما يهدهد من مشاعره الفائرة، وآلام

(١) ذاته ص ٤٠١ وص ٤٠٨ وما بعدها.

غربته بما يرسم لنفسه من صور تنديها الآمال، وترف عليها المني. ولنستمع إليه يتحدث عن ذلك كله في شعر تسري فيه رقة الشعور، وتسوده عاطفة وطنية عميقة:

يـا طـير هيجـت آلامـي وأشـجاني * بـما تغنيـه مـن ألحـان ولهـان
بي مثـل مـا بـك مـن أحـزان مغـترب * فالكـل منـا وحيـد مالـه ثـان
بعثـت شـكواي ألحانـاً مرتلـة * وأنـت شـكواك ترجيـع لألحـاني
تشـكو فـراق أليـف كنـت تألفـه * أمـا أنـا فشـكاتي بعـد أوطـاني
أيـن المصـيف وأيـام بـه سـلفت؟ * وأيـن يـا طـير أحبـابي وخـلاني؟
أيـن الجبـال التـي تكسـو أعاليهـا * بمـذهب مـن كثيـف السـحب هتـان؟
وأين مني شهار ؟ أين هضبته؟ * يـا حبـذا فيـه أفراحـي وأحـزاني
وأيـن منـي (...) ؟ أيـن مجلسـنا؟ * في ظلمـة الليـل أرعاهـا وترعـاني
وأيـن – لا أيـن – سـاعات مفضـلة * كانت – بما راح فيها – خير أزماني؟ (١)

******

ولئن كان وطنه حبيباً إلي نفسه، أثيراً لدي فؤاده إن لوطنه العربي الكبير منزلة في سويداء قلبه لا تطاولها منزلة، ومجداً لا يعدله مجد. وسر ذلك واضح يكمن في انضواء أبناء هذه الأسرة العربية تحت راية الإسلام العظيم: كتابًا منزلاً، وسنة مطهرة ولساناً واحداً:

نحـن مـن نحـن؟ هـداة قـادة ** ربنـا الله وهادينـا النبـي

(١) ذاته صـ ٦١ وما بعدها. وشهار: مصيف في الطائف.

لغـــة الضـــاد نمـــت أعراقنـــا ** وروتهـــا بالـــدم المنتخـــب
نحـــن في المشرق والمغـــرب مـــن ** ســـطرت أمجـــادهم بالـــذهب [1]

ويمضي "عبد الله" يستعرض مفاخر العرب تظلهم هذه الرابطة المتينة في العقيدة، وهذا التناغم الحميم بين أبناء الشرق وأبناء الغرب، فهؤلاء يذودون عن أولئك، وأولئك ينافحون عن هؤلاء، بما يسجل للجميع شرفاً واستماتةً وتفانياً دونه كل تفان، يبثه علي الفضاء الرحب جيل عن جيل، ويتحدث به خلف عن سلف:

قـــبلات عـــاطرات كالســـنا ** مـــن بعيـــد للبعيـــد الأقـــرب
وتحيـــــات وأشـــــواق سرت ** بـــين أنســـام الفضـــاء الأرحـــب
لكمـــو نحـــن كـــما أنـــتم لنـــا ** إخـــــــوة أبنـــــــاء أم وأب
نفتـــدي بـــالروح مـــا يكـــربكم ** مثـــل مـــا تفـــدوننا في الكـــرب [2]

ولما انتاب هذا الوطن المحن الخارجية طارت نفس الشاعر شعاعاً حيال تلك النوائب، وتوجس خيفة من أن تضحي بلادنا لقمة سائغة في أيدي الطامعين، في:

زمـــان قـــد أصـــبح العـــدل فيـــه ** محض وهـــم ومالـــه مـــن وجـــود [3]

فاستجمع قواه وطفق وهو الأديب الذي عرك الأحداث وعركته – يدعو إلي المواجهة الحاسمة التي لا تعرف المداراة أو المواربة، وإلي نبذ الشعارات الجوفاء، فقد وعينا الموقف عن كثب:

---

(١) ذاته ص ١٦٨.

(٢) ذاته ص ١٦٧.

(٣) ذاته ص ٤٣٤.

وأصـــبح المـــدفع مرســـالنا ** للظـــالم البـــاغي ولـــيس الخطـــاب
ففـــي الحشـــا تصرـــخ ثاراتنـــا ** ويـــل لمـــن مرغنـــا بـــالتراب
والمجـــد تـــدعونا هتافاتـــه ** للزحـف في عـزم الأسـود الغضـاب [1]

وإذًا، فلا سكون ولا سكوت، ولا استسلام ولا استكانة، وإنما الحرب والزحف المقدس والجهاد المشروع. وبغيرها لن تحمي الأرض والعرض. ذلك منطق التاريخ. ولتكن الغاية " كم من محنة في طيها منحة":

نحـن لسـنا دعـاة حـرب ولكـن ** لـو غزينـا فبأسـنا مـن حديـد
قـد حسـبنا لكـل شيء حسـايا ** واحترزنـا بعـدة وعديـد
وقـديما تناقـل النـاس قـولا ** لا يفـل الحديـد غـير الحديـد
قد يكون السقوط مـن عثـرة الخطـ ** و،بشـيرا لوقفـة وصـعود[2]

وهذا المعني أكده – قبلاً – الشاعر "علي محمود طه" في أبياته الذائعة:

أخـي جـاوز الظـالمون المـدى ** فحـق الجهـاد وحـق الفـدا
أنـتركهم يغصـبون العروبـة أر ** ض الأبـوة والسـؤددا
وليسـوا بغـير صـليل السـيو ** ف يجيبـون صـوتا لنـا أو صـدي

فكلا المعنيين يضيء من مشكاة واحدة .

(١) ذاته ص ١٣٩ وما بعدها.

(٢) ذاته ص ٤٠٦ ،ص٤١٠.

ولما وقعت الانقسامات في صفوف أمتنا العربية الإسلامية تضاعف إحساسه بالألم، لبشاعة الموقف، ووخز المشهد:

جرحنا غائر وما من حكيم ** يبرئ الجرح من دم وصديد [1]

ومع هذا لم يتلفع بالصمت بل مضي علي عادة الناصح الأمين في الضغط علي المعاني والمواقف التي بها يتم النصر المبين. وهل يكتب نصر لقوم تفرقوا أيدي سبا، أو غلبهم النوم فراحوا في سبات عميق ؟ ذلك ما لا يصح:

أبشروا بالنصر من رب الورى ** ما بقيتم في التحام ووئام

ليس بعد اليوم وقت للكري ** قد صحونا لم يعد فينا نيام [2]

كل هذا ينبعث من:

شاعر عربي كل غايته ** أن يظفر العرب بالآمال والغلب [3]

ويلتفت إلي قضية العرب الكبرى (فلسطين) فيتحدث إلي الفدائيين حديث الواثق بأن يوم الخلاص والثأر قريب، وبأن النائبات ستنقشع، والظلام المكفهر سينصدع:

قل للفدائيين قد آذنت ** شمس العدا بعد الفدا بالغياب

وبان فجر الأمل المشتهي ** زاهي الرؤى تشرق فيه الرغاب

وليلنا بعد اشتداد الدجى ** ينفض عن برديه ثقل الضباب [4].

---

(١) ذاته ص٤٠٤.

(٢) ذاته ص ١٦٠.

(٣) ذاته ص ١٣٨.

(٤) ذاته ص ١٣٩.

وبمثل هذه النظرة انبري معلنًا: أن "القدس بداية التحرير؛ لأنها أرض القداسة، وموضع العبادة لجميع الأديان. وهنا نلاحظ أن هذه الدعوة لتحرير القدس كان ينادي بها الملك الشهيد "فيصل بن عبد العزيز" في حياته، فكانت صلاته في القدس أمنيته قبل استشهاده، فجاء ابنه وأطلق هذه الدعوة في شعره، فكان عن نفسه معبرًا وبوصية أبيه برًا"(١). وما يزال بأبطال النصر (الفدائيين) يستصرخهم للمجد المغلوب، والتراث المغصوب، والعرض المسلوب. ويكاد يطير شوقاً وتحناناً إليهم. وما له لا يفعل، وقد علم أن للشهداء في صدر كل عربي مكانة، وفي عنق كل مسلم ذمة ؟! ولولا دماؤهم المسفوحة ذوداً عن الأوطان وجلاءً للذل عن النفوس ما قطفت شعوبهم أي ثمار.إن عهدهم صادق، ومسعاهم شريف، وغايتهم نبيلة نابعة من قوة إيمانهم بربهم وطمعًا في الثواب الأخروي:

قـــل للفـــدائي هنيئًـــا لـــه ** معـــارك تنطـــق فيهـــا الحـــراب

يمضي- إلي الحـرب عزيـز الخطـي ** لا مطمـــع يحفـــزه للســـلاب

وإنـــما تحـــدوه ســـقيا العـــدا ** كأسًـــا جرعنـــا منـــه مـــر العـــذاب

لا يرهـــب المـــوت ولا ينثنـــي ** عـن عزمـه شـأن الشـجاع المهـاب

ســـلاحه الإيـــمان في ربـــه ** وهمـــة عاليـــة كالشـــهاب

يـــدفع عـــن موطنـــه طاغيـــا ** ميزتـــه في الحـــرب غـــدر الـــذئاب

طاب الفـدا.. هـذا الجهـاد الـذي ** نبنـي بـه فـوق المعـالي قبـاب (٢)

(١) عبد الله الفيصل: حياته وشعره ص ٤١.

(٢) المجموعة الكاملة ص ١٤٠ – ١٤١.

وتنثال علي خاطر الشاعر صور أشتات من جملة ما سمع وقرأ عن حال إخوانه(الفلسطينيين) الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق، وجردوا من أموالهم بغير رحمة، وقضي في مصيرهم بغير عدل. والغريب أن أبناء "صهيون" يفعلون هذا وأفظع منه ويزعمون في الوقت عينه أنهم سيحيلون الصحراء فراديس ! تبا لهم من قوم لا يعرفون إلا الغدر مذهبا:

إن أعلنـــوا حقـــا بـــأقوالهم ** كـــذبهم بهتـــانهم في الخفـــاء

كـم قوضـوا جسراً وكـم هـدموا ** بيتـاً وفـير الأمـن باسـم البنـاء

كـم مبـدإ باسـم الرخـاء اجتـدوا ** للناس، فاغتالوا الصـفا والرجـاء

كـــم أعلنـــوا حربًـــا ولم يفعلـــوا ** غـير الـذي يـدمي جبـين الإبـاء

لـو يسـأل "المـذياع" كـم أطلقـوا ** عهداً: وكم خاب بهـم مـن رجـاء

لاعتـــذر "المـــذياع" عـــن رده ** ولاذ بالصـمت لفـرط الحيـاء [1]

إن نكبة "فلسطين" قد غطت علي كل محنة، والحديث عنها ملء القلوب وشغل الألسـن. ولكن الخطابة والكتابة والبكاء ضعف وعجز. و"جعجعة من غير طحن". وما تخوفه الشاعر أمس تذوقه العرب اليوم. فلتتيقظ الأمة، ولتتوحد كلمتها وصفوفها. فعلة العلل في انقسام الرأي، وانحلال العقدة. وعليها أن تجدد في أذهان أبنائها معاني المروءة والعطاء والفداء. والأمل معقود – بعد الله تعالي وتعظم – علي القواد الذين سـيـستأصلون شأفة هذه الشجرة الملعونة، وسيطوون صفحة أهلها من سجل الوجود. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله؛ إذ يرون كلمته هي العليا، وحزبه هو الغالب.

(١) ذاته ص ١٤٢.

ويومئذ تعود "القدس" إلي العرب، ويعودون هم إلي منزلتهم من صدر الحياة ومكانتهم من قيادة الناس. ليستيقن الجميع أن النور الأخضر سيضيء وسط الظلمات الكثيفة والليل البهيم فـ.:

يا قدس يـا مهـد السـلام انتهـي ** عهـــد الملـــمات وذاك الريـــاء

وجاء عهد الصدق، عهـد الفـدا ** يحمـــل فجـــراً زاخـــرًا بالعطـــاء

إن الفـــدائيين بعـــد الـــذي ** عانيـت مـن شـتي صـنوف الـبلاء

قـد أقسـموا أن يثـأروا للعـلا ** للطهـر مسـفوحًا لزاكـي الـدماء

لا خطـب كـالأمس يلهـي بهـا ** ولا ضـــجيج هـــادر في الهـــواء

وإنـــما تزحـــف آســـادهم ** نحـــو العـــدا منـــذرة بالفنـــاء

ليـل الأسـى ولي بـلا رجعـة ** فاسـتقبلي (يـا قـدس) فجـر الضـياء[1]

وكما تغني ببلاده تغني ببعض البلدان العربية. ففي شعره انعطافة حانية إلي مصر؛ إذ نبصره يتمثل عبق التاريخ بين أكنافها، هاتفًا بروعة طبيعتها الفينانة، ميممًا صوب ما تختزله من الحضارة والأدب والعلم والثقافة والتاريخ الذي كانت غرة في جبينه علي امتداد حقبه ومراحله. وقبل هذا وبعده هي البلدة المضياف التي تمنح روادها ما يتعطشون إليه من بر وحنان:

أم الحضـــارة والتـــاريخ مـــن قـــدم ** كـم سـطرت مجـدها في رائـع الكتـب

يـا مصر يـا زينـة الـدنيا وفتنتهـا ** مـا كنـت إلا مـلاذ العلـم والأدب

(١) ذاته ص ١٤٣ وما يليها.

النيـــل يمـــرح في واديـــك منعطفًـــا ** علي الخصيب ويـروي غـير مختصـب
والحســن والفــن والأغصــان وارفــة ** عـــلي المرابـــع مـــن نـــاء ومقـــترب
كأنهـــا صـــورة الفـــردوس مـــا ثلـــة ** لكـــل مســـتوطن فيهـــا ومغـــترب [1]

وينظر في أعماق الزمن آخذًا بأطراف ما مضي وما هو حاضر، مجليًا أنها قوة لا يستهان بها. قوة انكسرت عليها أيدي الطامعين. وليعلم من تسول له نفسه الاعتداء عليها أنه واهم مخدوع، أو مأفون أخرق. فمصر مقبرة الغزاة لا بلد الطغاة. ومن أعوزه الدليل فالتاريخ خير شاهد يسوق الأمثلة قديمًا وحديثًا. فكم ثبتت "مصر" في الشدائد والأزمات:

ركـم أقامـت حصـون المجـد شـامخة * وحطمت من حصـون الإفـك والحـرب
في "عين جالوت" أو "حطـين" مقـبرة * لكـــل مغتصـــب بـــالإثم محتقـــب
ويـوم "تشـرين" قـام الحـق مرتفعًـا * عـلي الـذري وخصـوم الحـق في صـبب
دكت حصون "بني صهيون" وانطمرت * في خط "بارليف" أكداس من الكـذب
عدت علـيهم ليـوث الغـاب فـاحترقوا * ولاذ مـــن لاذ بـــالإفلات والهـــرب
كـــأنهم بـــين أبطـــال الـــوغى جـــرذ * مـــذعورة وقعـــت في كـــف مختلـــب
دارت علـيهم دواعـي الشرـ فـانقلبوا * عـــلي عـــواتقهم في شر منقلـــب
والجـيش يـرهبهم والهـول يـرعبهم * والمـوت يـرقبهم في كـل مرتقـب
يقـوده "أنـور السـادات" مقـتحمًا * صعب المسالك بين العسكر اللجب [2]

(١) ذاته ص ١٣٤.

(٢) ذاته ص ١٣٥ وما بعدها.

وواضح من البيت الأخير أنه يثني علي "السادات" من عظماء مصر ورجالاتها الشوامخ. وقد أثني – قبلاً – علي "أحمد شوقي" من كبار شعرائها وأدبائها، فقال [1]:

أسدرة المنتهي أم كرمة العنب * قد كان "شوقي" بها صناجة العرب
شدا بها الشعر ألحاناً معطرة * كسالف الدهر أو مستقبل الحقب
وكان من قبس الإلهام مقتبسًا * نورًا يضيء به محلول لك الكرب
أهدي إلي الشرق من مكنون حكمته * جواهر الحكمة الوهاجة اللهب

وحق له هذا الثناء المستطاب، فشوقي:" كان في الأدب كالشمس من المشرق، متي طلعت في موضع فقد طلعت في كل موضع، ومتي ذكر في بلد من بلاد العالم العربي اتسع معني اسمه فدل علي مصر كلها، كأنما قيل النيل أو الهرم أو القاهرة، مترادفات لا في وضع اللغة ولكن في جلال اللغة"[2]. كما أثني أيضاً علي عاهل المغرب الملك "الحسن" الثاني وشعبه[3] والأردن[4] ومليكها. وفيه وفيها: يقول:

بلد تعبق العراقة فيه * بحديث كالسلسل العذب جار
تتجلي به العروبة في أو * طارها من سلافة الأوطار
قد أقام "الحسين" فيك الحضارا * ت علي خير سنة واختيار
ملك شامخ الأرومة يجلو * عزمه في الوغى عتيم الغبار [5]

(١) ذاته ص ١٣٣.

(٢) وحي القلم كتبه مصطفي صادق الرافعي ص ٢٩٥ الجزء الثالث دار المعارف بمصر – ١٩٧٢م.

(٣) ذاته ص ١٠٧ وما بعدها.

(٤) ذاته ص ٤٢٨ وما بعدها.

(٥) ذاته ص ٤٢٨ – ٤٣٠.

وعلي الكويت [1]. وعلي شعب "العراق" الأبي الذي اعتل إدراك قادته في أزمة الخليج، واختل توازنهم، وانطلقوا في ضراوة الوحش ورعونة العاصفة يدمرون ما عمر، وينقضون ما أبرم. بيد أن مواقفهم هذه لن تنال من دورنا المشرق وهو المواجهة التي لا تنطوي علي خور أو إحجام أو إصغاء لمنطق التهديد. وما نزال علي العهد ماضين ننزل أبناء الرافدين ونحلهم منا محل النفس، وذلك راجع إلي مهد الصحبة الكريمة والوفاء المقيم والإخاء الحميم والتاريخ المشترك:

أخطـأوا في الحسـاب كـما وكيفًـا ** وتمـادوا، فـأوغلوا في الحـدود

حسـبوا أننـا نميـل إلي الضعـ ** ف، ونصـغي لمنطـق التهديـد

مـا أردنـا الـدمار للبلـد الجـا ** ر ولكنهـا خطـي النمـرود

إن أشـقي الـولاة مـن شـقي النـا ** س بسـلطانه البغـيض المريـد

لـو أشـار العـراق في طلـب العـو ** ن بسـطنا أكفنـا بالمزيـد

فالإخـاء الحمـيم يـربط بينـا ** لعهـود تعاقبـت وعهـود[2]

******

وإذا يممت صوب الجانب الوجداني الغزلي، فإني أراه يغطي مساحة كبيرة من ديوانه، كما ألمعت في كلامي الدابر. نعم، لقد شرحت المرأة فؤاده وأثارت حسه، وجعلته يدر بالأدب الرطيب. كأن في هذا شفاء نفسه مما تجد إنني أراه يبوح بما يحمله في قلبه من مشاعر نحوها. فقد صرف عمره مشغوفًا بهواها، وقضي الليالي السود في

(١) ذاته ص ٤١٠ – ٤١١.

(٢) ص ٤٠٤ – ٤٠٥.

نجواها، ورنا إليها – علي بعادها – مثلما يرنو الحزين لساطع الأفلاك. ويمضي يهيم بها، برخيم كلامها، وسحر عينيها، بله وسامة وجهها الذي أشرق في سماء وجده. ولقد أضحي بها متيمًا لا يبغي عنها حولاً وكيف.. وقد تعانق روحاهما، وانتشي – وهو الصب المدله– حتىٰ غاب عن وعيه !:

قد ساءلت: من أنت ؟ قلت: أنا الذي ** قضيت عمري – مدنفًا – أهواك

وأطعت عيني في الغرام وخافقي ** أقضي الليالي السود في نجواك

أرنو إليك – علي بعادك – مثلما ** يرنو الحزين لساطع الأفلاك

وأبث للنجم المسهد لوعتي ** يا ليتنىٰ – بعد النوىٰ – ألقاك

ما كنت أومن بالعيون وفعلها ** حتىٰ دهتني في الهوىٰ عيناك

الحسن قد ولاك حقا عرشه ** فتحكمي في قلب من يهواك

قلبي كما تبغين إلف صبابة ** قد مل كل خريدة إلاك

بالله يا أملي الحبيب ترفقي ** إني وربك في الهوىٰ مضناك

فرنت إلي وقد تألق لحظها ** أفديه من لحظ رنا فتاك

ونضت عن الوجه الوسيم وتمتمت ** يا روحه الظمأىٰ علي رواك

وتعانق الروحان في روض الهوىٰ ** فثملت حتىٰ غبت عن إدراكي[1]

ويطل من الأبيات ما يؤكد أن صاحبته حركت دفائنه، وأخذته من جميع أقطاره، فلم يعد ينظر إلا إليها، ولم يعد يفكر إلا فيها. ويطل منها كذلك معاناته في حبه، وشكواه

(١) ذاته ص ٥٩ وما بعدها.

اليائسة الحزينة. ولعل حنينه وأنينه يتوهج في هذه اللوحة ذات السمت الآسر، والرواء الناصع الرقراق:

هـــل تـــذكرين وداعينـــا مصـــافحة * أودعـت فيهـا كـريم الأصـل يمنـاك
أو تـــذكرين بـــوادي "وج" وقفتنـــا * وقـد أفاضـت علينـا الطهـر عينـاك
وحـين غنـت عـلي الأغصـان شـادية * أنشـودة الحـب في ترديـدها البـاكي
أنـــت الحيـــاة لقلـــب جـــد مكتئـــب * ولـــيس يســـعده بالوصـــل إلاك
مـــاذا يضـــيرك لـــو حققـــت أمنيتـــي * فيسـعد القلـب مـن شـوق لرؤيـاك
ففيـــك للقلـــب أهـــواء مجمعـــة * وفي لقائـك دنيـا الشـاعر الشـاكي
أقصيـــ أمـــاني لـــو تبـــدين باســـمة * أسـتلهم الشـعر مـن بـاهي محيـاك
دنيـــاىَ نـــار مـــن الهجـــران محرقـــة * إذا نأيـــت وروض حـــين ألقـــاك
فـــإن نســـيت وداداً كـــان يجمعنـــا * عـلي العفـاف فقلبـي لـيس ينسـاك
والـــذكريات إذا مـــا عـــز قربـــك لي * سـلوىَ فـؤاد عـلي الأيـام يهـواك [1]

أغرته حبيبته وملهمته فاحتفي بها وانعطف إليها، وانساب الحب بين حناياه فطمع في القرب والوصال، ولم يظفر إلا بالهجر والحرمان، ولم يلف سلواه إلا في الذكريات يعيش عذبها وعذاباتها. وكأنما تملكه هذا المعني واستولي عليه، فمضي يضرب علي وتره، مسترجعاً الذكريات التي تفلتت في أعقاب الزمن وتلاشت في زحام الأيام. نعم، جاء

(١) ذاته ص ١٩ وما بعدها.

كثير من قصائده يحذو هذا الحذو، ويدور في هذا الفلك، من مثل: "حيرة"[١] و "أصداء الماضي"[٢] و"علي ضفاف النيل"[٣] و"كنا وكان" [٤]. ولست أريد أن أحشد هنا كل ما قال،وليس وكدي أن أتعقب فنه في هذه السبيل بيتاً بيتاً أو قصيدة قصيدة؛ لأن المقام لا يتسع لمثل هذا التفصيل، ولأن اجتزاء النماذج يغني عن سائرها. ومهما يكن فالدارس كلما ازداد تأملاً في شعره الوجداني وقف علي نواح جديدة تثري هذه الدراسة. ولئن كان فيما سقته من أمثلة وشواهد شاكياً من الحبيب، مستسلماً لطائف الذكري إنه في الآتي يشك فيه، في قواف فيها رنة من المضاضة والألم، كأنها نشيج مكتوم أو كمد مكظوم، وفيها إيماء إلي أن صاحبته غدت في غني عنه، ولا غني له عنها، كما صرح بذلك في قوله:

أنت تغني عني ولست غنيا ** عنك بين الإصباح والإمساء [٥]

فكان في أمر مريج. يقول:

أكاد أشك في نفسي لأني ** أكاد أشك فيك وأنت مني

يقول الناس: إنك خنت عهدي ** ولم تحفظ هواي ولم تصني

وأنت مناي أجمعها مشت بي ** إليك خطي الشباب المطمئن

وقد كاد الشباب لغير عود ** يولي عن فتي في غير أمن

---

(١) ذاته ص ٢٥ وما بعدها.

(٢) ذاته ص ٥٣ وما بعدها.

(٣) ذاته ص٥٧ وما بعدها.

(٤) ذاته ص ٤٩ وما بعدها.

(٥) ذاته ص ٣١٩.

وهـــا أنـــا فـــاتني القـــدر المـــوالي ** بـــأحلام الشـــباب ولم يفتنـــي
كـــأن صـــباي قـــد ردت رؤاه ** عـــلي جفنـــي المســـهد أو كـــأني
يكـــذب فيـــك كـــل النـــاس قلبـــي ** وتســـمع فيـــك كـــل النـــاس أذني
وكـــم طافـــت عـــلي ظـــلال شـــك ** أقضـــت مضـــجعي واســـتعبدتني
كـــأني طـــاف بي ركـــب الليـــالي ** يحـــدث عنـــك في الـــدنيا وعنـــي
عـــلي أني أغـــالط فيـــك ســـمعي ** وتبصر فيـــك غـــير الشـــك عينـــي
ومـــا أنـــا بالمصـــدق فيـــك قـــولاً ** ولكنـــي شـــقيت بحســـن ظنـــي
وبي ممـــــا يســـــاورني كثـــــير ** مـــن الشـــجن المـــؤرق لا تـــدعني
تعـــذب في لهيـــب الشـــك روحـــي ** وتشـــقي بـــالظنون وبـــالتمني
أجبنـــي إذ ســـألتك: هـــل صـــحيح ** حديث النـاس، خنـت ألم تخني ؟[1]

والأبيات تحمل أنفاس صاحبها، وتصف ما يجد. فصاحبته استعبدته بمغانيها، وشغلته بأمانيها، وخدرت حسه بآلها الخادع، وغرته بوعودها البراقة، ثم عادت فمزقت حبال المني، فتبدد حلمه وتجهم واقعه. وقد يبادر قوم إلي مؤاخذته ووصمه بالضعف أمام غدرها وخيانتها، قائلين: ليتركها ولتذهب هي إلي غير رجعة، فالسماء لم تطوطي الكتاب، والأرض لم تبدل غير الأرض، والدنيا لم تصبح غير الدنيا. وقد يعجب آخرون قائلين: لقد أخلص في وداده ولما تفي، فليدعها تذهب كما تشاء. وماله لا يفعل ؟! أليس في مجده المحفوف بالجلال الباهر والسؤدد العريق عوض عن كل فائت، وسلوىٰ عن

(١) ذاته ص ٤٤ وما يليها.

كل مفقود ؟! ولكن هؤلاء وأولئك فاتهم أن مزاعمهم تلك تنكر لطمأنينة النفس وجحود لراحة القلب ورضا العاطفة ! و من قال: إن صولجان الملك يضمن سعادة النفس ؟ ومن قال : إن جواهر التاج تعدل إشراقة الحبيب؟ علي ذلك تواضعت شرائع المحبين. للحب عليهم سلطان قاهر، يذعنون له في خضوع بين. ألم يقل "الشاب" الظريف:

للعاشقين بأحكام الغرام رضا ** فلا تكن يا فتي بالعذل معترضا

روحي الفداء لأحبابي وإن نقضوا ** عهد الوفي الذي للعهد ما نقضا

قف واستمع سيرة الصب الذي قتلوا ** فمات في حبهم لم يبلغ الغرضا

رأي فحب، فرام الوصل فامتنعوا ** فسام صبرًا فأعيي نيله فقضي [1]

وإذا كان "الفيصل" قد خضع لسلطان "حواء" فقد خضع من قبله "الرشيد"، وقال – فيما حدث الرواة-:

ملك الثلاث الآنسات عناني ** وحللن من قلبي بكل مكان

مالي تطاوعني البرية كلها ** وأطيعهن وهن في عصياني

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى ** - وبه قوين – أعز من سلطاني

ما كان بوسعه – إذًا – أن يتسلي عنها، فقلبه نابض بحبها، خافق بذكراها. وتجربته معها – علي مرارتها – لها سطوة علي نفسه، ونقش في وجدانه. وكم هتف بهذا المعني غير شاعر. وهذا أحدهم يقول:

(١) ديوان " الشاب الظريف " (شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني) حققه وأعد تكملته وفسر ألفاظه: شاكر هادي ص ١٣٨ الطبعة الأولي ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م – مكتبة النهضة العربية – عالم الكتب

أريـد لأنسي ذكرهـا فكـأنما ** تمثـل لي لـيلي بكـل سـبيل

والمقلب لشعره يلمس لهذه الناحية أثرًا فيه. فإذا أنعمنا النظر في أبياته التي يقول فيها:

ودعـت أيـام الربيـع النـاضر ** ودفنـت آمـالي ووحـي خـواطري
ووأدت مـا في القلـب مـن ذكـر الصـبا ** ونفضـت عـن ذهنـي خيـال الشـاعر
لا حـب والغـدر الخئـون يحوطـه ** ولي الغـرام مـع الحبيـب الغـادر
هـي وردة ظمـأى وقـد رويتهـا ** - إذ قل عنها الغيث - مـاء نـواظري
أيقظتهـا بـل صـغتها في قالـب ** مـن نـور آمـالي وزيـن مشـاعري
ومنحتهـا قلبـا - عـلي أترابهـا ** قـد عـز - يرعاهـا بحـب طـاهر
لم أدر حـين سـقيتها ورعيتهـا ** أني سـأجزي بـالعقوق السـافر
يـا قلـب لا يحزنـك مـا ضـيعته ** مـن حبـك الـوافي لعهـد غـابر
بـل لا يروعـك الزمـان بمكـره ** إن الكـريم ليبـتلي بالمـاكر
هـل كـان ذاك الـود إلا خدعـة ** خلابـة مبذولـة مـن فـاجر
كـم ذا بـذلت صـداقة ومحبـة ** وجنيـت مـا يجنـي فقيـد بصـائر
فاربـأ بنفسـك أن تكـون معـذبا ** وانظـر إلي المـاضي بعـين السـاخر
فالحـب مـا ينـأي بقصـدك عـن هـوي ** زيـف كـأهواء الـدعي الهـاجر [1]

أقول: إذا أنعمنا النظر في أبياته هذه أحسسنا كأنه يفقد الثقة في وصال من يهوي، ويودع لياليه الحالمة التي عاشها مع صاحبته يرتشفان معا كئوس المحبة حتي الثمالة. فهل ذلك كله يقابل بالجحود والنكران ؟!

(١) ذاته ص ٦٣ وما بعدها.

ولو طالعنا – إثرئذ – قوله:

ألاقـي مـن عـذابك مـا ألاقـي ** وحبـك في حنايـا القلـب بـاق
وتسرف في الصدود وفي التجني ** وأسرف في التيـاعي واشـتياقي
ولو يدري فؤادك ما أعاني ** ومـا ألقـاه مـن ألم الفـراق
لما أمعنت في هذا التجافي ** ولا أذللت من دمعي المراق
ولكني كتمتك هول ما بي ** ومازال التجلد من خلاقي
فلو زعم العواذل بي سلوا ** فكل حديثهم محض اختلاق
وما أبدي لهم غير التأسي ** وإن كانت ضلوعي في احتراق
وكم حسبوا عنانيَ جد طلق ** وقلبي جد مشدود الوثاق
وأخشىَ أن يقال صريع عشق ** يلاقي في المحبة ما يلاقي
وأغرق في ظلام الليل يأسي ** فأغرق في اصطباحي واغتباقي
وأنهل من لمي ذكراك عذباً ** أعل به ووهم رضاك ساق
ويبسط لي الخيال ظلال أنس ** أعيش بها إلي يوم التلاقي
أعيذك أن تعين علي سقمي ** معونتك الدموع علي المآقي [1]

لوجدنا حظوظًا من الدلالة لا نجدها في شقائقها الآنفات ولاستشعرنا الهوىَ الجامح يداعبه، ووسوسات أحلامه تعاوده في الأوبة إليها والظفر بهواها مرة أخري.

فقه النصوص –إذاً– من شأنه أن يبين عن خفايا القلوب والسرائر، أو شيء منها. وكلما دقق الدارس في جانب انفتحت له أبعاد وجوانب. ومن الأبعاد التي وضحت لي تحليقه بشعره الغزلي في سماء العفاف والتصون علي شاكلة قوله:

(١) ذاته ص ٧٨ وما بعدها.

قضـــيت لـــيلي كلـــه هـــائماً ** خلـف حبيبـي الفـاتن الأسـمر
مـا همنـي سـهدي ولا راعنـي ** منـه جفـاء الـريم إن ينفـر
أرقـي مـع الأنجـم في جوهـا ** وتسـهر الأنجـم إن أسـهر
ومـا طلبـت الوصـل في رجسـه ** فالحـب مـن إثـم الـدنايا بـري
شـأني بهـذا الحـب شـأن الـربي ** تختـال بـالمثمر والمزهـر
والحـب لا يعنـي سـوي نشـوة ** تمـلأ قلبـي بـالهوىٰ العبقـري[1]

وقوله:

أفـق مـن الغفلـة يـا سـاحري ** فـما الهـوىٰ إثـم ولا منكـر [2]

وقوله في نبرة مطربة، وتعبير مفتن خالب تداعبه نسمات حبيبته الحلوة، وجوها الأخضر الريان:

نسـيت الهـوىٰ إلا هـواك فإنـه ** تغلغـل في الأعـماق وانسـاب في دمي
وأصـبحت لا طيـف سـواك يهـزني ** ولا نغـم إلاك يفـتر في فمـي
ومـا صرت أرعـي البـدر إلا لأنـه ** كوجهـك إن تسـفر، وإن تتبسـم
حبيبـي هـل في الكـون لـولاك نفحـة ** من العطـر تسرـي في النسـيم المحـوم
وهـل في أحاسـيس المحبـين ومضـة ** مـن الحـب لـولا خفـق قلبـي المتـيم
حبيبـي زدني في هـواك تعلقـا ** وطـربي في أجـواء حبـك أنعـم

(١) ذاته ص ٢٩٤ – ٢٩٥.

(٢) ذاته ص ٣٥٨.

فـلا البـدر أبهـي مـن فتونـك نضرة ** ولا الطيـب إلا مـن ثنايـاك يرتمـي
وقفـت عليـك العمـر والجـاه والغنـي ** وأسرفـت في نجـواك مـن غـير منـدم
وأنشـدت فيـك الشـعر حتـى تألقـت ** قوافيـه كالهـالات حفـت بـأنجم
وأقسـمت أن أرعـي هـواك عـلي المـدى ** رعايـة سـاقي الـورد رقـة بـرعم
فكـن لي عـلي مـر الليـالي منـارة ** تبـدد عـن دنيـاي كـل تجهـم
ولا تخـش عـذلا في هـواي ولومـة ** فـإن هوانـا العـف غـير محـرم [1]

وقوله:

هـذا شـبابك ضـائع كشـبابي ** أرثـي لمـا بـك أم أنـوح لمـا بي
دنيـاك قفـر مـن خيـال متـيم ** يرنـو إليـك بلهفـة الأحبـاب
ودنـاي كالصـحراء أخطاهـا الحيـا ** فتحولـت مـن خضرة ليبـاب
وتشـابهت أحلامنـا في بؤسـها ** مـا بـين حرمـان وبـين عتـاب
حتـى كـان الآه مـن ترديـدنا ** شـدت عـذابك في وثـاق عـذابي
وأنـا الـذي رقـت مشـاعر قلبـه ** كـالنور في وضـح الضـحى المنسـاب
وتعلـق الحـب الطهـور بخـاطري ** كالطيـب بـين خمائـل وروابي
لا يـا ابنـة الأحـزان لا تتخـوفي ** مـن شـاعر يهـواك أو ترتـابي
لا تكتمـي عنـي هـواك فإنـه ** سـطر أراه مكـبرا بكتـابي [2]

(١) ذاته ص ٣٠٩ وما بعدها.

(٢) ذاته ص ٢٢٩ وما بعدها.

والأبيات ناطقة بما يتصف به "الفيصل" من العفة و الطهر، وأخذه النفس علي السمو بالابتعاد عن الخنا والدنية. وهي – ومثلها كثير – لا تعدو أن تكون ترجمة أمينة وانعكاسة صادقة لبيئته. ولا غرو في ذلك ولا غرابة فقد كان من الشرف في الذروة الحصداء والركن الأشد كما يقول جميل. وواقع الحال يقرر أن البيئة السعودية: : "أضفت علي المرأة وعلاقتها بالرجل سمة تتميز بكثير من التحفظ،ومن هذه البيئة انطلق الشاعر ليعبر عن مشاعره وعواطفه وعشقه للمرأة،مشاعر الإنسان الذي يتوق إلي الشيء البعيد المنال، فهو دائماً يتمناه ويمني النفس به" (١).

وغير البيئة التي درج علي أرضها، وترعرعت في جنباتها مواهبه، ونمت بين مروجها مواجده وأشواقه، وغير الأوضاع الاجتماعية التي شكلت أنماط حياته ثمة هدي الإسلام ومعينه الذي ترفده القيم النبيلة و المثل العالية مما جعله يتسامي في غزله، فلا معابثة فاضحة، ولا مجاهرة بالغواية بل حديث عن المرأة تطل منه الفضيلة، وتتمثل فيه عفة اللسان وسمو الخاطرة. وله من هذا النسق قواف رائعة، مرسلة علي الطبع، معتصمة بالحياء، لا يطلق صاحبها العنان لشيطان الشعر حتى لا يتردي في مهابط المباذل والفحش. كقوله:

لــو لا الهــوى ووفــاؤك المعهــود ** خفقــت لغــيرك في الفــؤاد بنــود

إني وربــــك في هــــواك موحــــد ** إن كــان عنــدك في الهــوى توحيــد

أشــدو بــذكرك والغــرام يســوقني ** لنهايــة في الحــب وهــي بعيــد

(١) عبد الله الفيصل: حياته وشعره ص ٦٢.

فـاحفظ ودادي إنـه أغـلي الـذي ** يفنـي فـؤاد دونـه ويبيـد [1]

وقوله:

يـا زهـرتي المحبوبـة الثانيـه ** مـا قصـة الـزراع والحاصـدين ؟

دنيـاك ليسـت أبـدا غانيـه ** تميـل حيـث القصـف والبـاذلون

بـل رحلـة مضـنية قاسـيه ** تـذهب فيهـا مهـج العـابثين

******

كـوني كـما شـئت.. ورب القضـاء ** لا يـبخس النـاس ولا يظلـم

وإنـما نحـن بـما لا نشـاء ** جهـلا عـلي أنفسـنا نحكـم

حصـادنا أعمالنـا لا مـراء ** والشـهد لا ينبتـه العلقـم [2]

وقوله:

أهـوي جمـال الخلـق في غـادة ** تحفـظ هاويهـا نـأي أم دنـا

وأرتـوي مـن حـب فتانـة ** لغـير مـن تهـواه لا تجتنـي

لهـا فـم عـن هفـوتي صـامت ** وفي حناياهـا تضـيء المنـي

صـابرة مهـما يثرهـا الجـوي ** تلجـم في عفتهـا الألسـنا [3]

وقوله:

---

(١) ذاته ص ٢٠٢.

(٢) ذاته ص ٢٠٣.

(٣) ذاته ص ٢٥٦.

حبيبـــي: إن بي للحـــب شـــوقا ** فـــلا تمنـــع عـــلي حـــي منـــاه
أري عمـري يغيـب كوقـع صـوت ** تـــلاشي في هـــدير مـــن صـــداه
إذا مـــر الصـــباح نزحـــت دمعـــي ** عـــلي يـــوم أواريـــه ثـــراه [1]

وقوله:

يـــا تـــوأم الـــروح ونـــور البصـر ** ضـاقت منـي الـروح بهـذا السـفر
وغشـــت الوحـــدة عينـــي فـــما ** يـــؤنس عينـــي كـــل هـــذا البشـر
ســـوي محيـــاك دجـــي حالـــك ** فـــأين منـــه لمحـــة للنظـــر
تســـعد أيـــامي ولـــيلي كـــما ** يســـعد بـــالأنجم نضـــو الســـهر
وتـــذهب الوحشـــة عـــن خـــاطر ** كـم غالـب الشـوق وكـم ذا صـبر
يهـــواك إن غبـــت وإن حـــاضرا ** يهـــواك في الوحـــدة أو في الســـمر
ومالـــه إن غبـــت مـــن ســـامر ** ســـوي صـــدي أيامنـــا والـــذكر [2]

..... إلي آخره.

والنماذج السابقة فيها من حب الحياة وفيها من وهج الإيمان. فيها أشواقه الهائمة وشغفه بالدنيا ونضارتها الخالبة، وفيها تمتعه بيقين الإيمان ومضائه المتوهج. فيها صورة نفسه الظامئة إلي الحب، الملتاعة من إخفاقه فيه، وفيها غيرته علي الحرم وحرصه علي أن يظل هذا الحب موصولاً بالقصد لا يتنكر له ولا يزيغ عنه، وإلا كان المسير وراء

(١) ذاته ص ٤٣٩-٤٤٠.

(٢) ذاته ص ٢٩ وما بعدها.

النزوات المهتاجة، وإلا كان الانزلاق في دوامة الترهات والمهازل. وهذا المنزع – وأكرم به من مسلك – مبعثه ما يبثه الإيمان في نفسه من تحفظ وتصون وتماسك. فإذا كان قد صور في شعره الدل الخلوب، والتمنع المطمع، والتشكيك في الوصال والهجر والمزج بين الإباء والإسماح، وإذا كان قد سجل أمارات النشوة الغامرة التي بلغت منه السويداء فإن هذا كله لم يخرجه عن وقاره وسمته. وقصاري الحسية عنده أن يجعلها من مظاهر قدرة الله:

وثنايـــا لؤلـــؤ مؤتلـــف ** ألـــق ســـبحان مـــن ألفـــه [1]

هو لم يخرج عن القصد و الاعتدال. هو يحب ولكن كأن به ما بالآخر الذي يقول:

قلبـــي يحـــب وإنـــما ** أخلاقـــه فيـــه ودينـــه

أو كأنما كان أمامه في منحاه هذا قول "جرير" الذي يردده فم الزمان:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ** ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ويري المتأمل في شعره – والطائفة الأخيرة من الأبيات السابقة مثال علي ذلك – بوحه بألا مرفأ له في الحياة ينتشله من وعثاء سفره سوي صاحبته، فمن له غيرها واحة يستروح إلي ظلها الظليل. هي أنسه بعد وحشته، وبلسمه وسط الأعاصير والأنواء. وهي السعادة تملأ أعطافه، فتنشطه بعد خمول وتمنيه بعد إياس. وكأني به يشعر بغربة روحية تلفحه بلظاها ويئن بسببها مثلما أن بسببها أخوه العربي المعاصر فقال:

والأرض ضاق فضاؤها الرحب ** وخلت فلا أهل ولا سكن

(١) ذاته ص ٩٨.

حـال الهـوى وتفـرق الصـحب ** وبقيت وحـدك أنـت والـزمن [1]

ويتقاضاني المقام أن أسجل أطرافًا صورها شعره في هذه السبيل. ومن ذلك قوله – وقد انطوي علي نفسه، وبات وحيداً في دنياه يعاني قسوة الوحدة، وحرقة الاغتراب–:

وحدتي، وحشتي، ومدرار دمعي ** لمحات من لاهبات المآسي [2]

وبعد الأنين حنين إليها. أليست داءه ودواءه ؟:

فأعيـــدي إلي بهجـــة عمـــر ** أنـت فيـه دائـي، وأنـت الآسي [3]

وما يزال يتقلب علي أشواك تلك الغربة التي أضنته وأشقته وأضحت هماً ثقيلاً عليه. وما ظنك بمن ينشد الأنس والهناء فيلقي الوصب والشجن، ويغرس الحدب والحنو فيجني الجحود والنكران ! إنه – بلا أدني ريب – يعيش موقفاً عجيباً يبكي العين بالدمع الهتون. كذلك كان الفيصل: كان يعيش موقفاً لا يطيق له حملاً ! ولكم حاول أن يكتم أناته، ويحبس دموعه في مآقيه تجنبًا لملام أو دفعًا لعتاب، فما نفع هذا وما أغناه فتيلا. وها هو ذا يجد برد الراحة والتنفيس عما يعانيه من آلام الحرمان والصد والغربة غربة الزمن وغربة الوجود في لواذه بخالقه فإليه – تعالي – المفزع. يتسلل الشاعر بوسائل الفن إلي وجدان متلقيه، فيكاشفه بل يكاشف الدنيا بما انطوت عليه جوانحه من خوالج. فيقول:

غربتـــي غربـــة المشـــاعر والـــرو ** ح، وإن عشـــت بـــين أهـــلي وصـــحبي

(١) البيتان لعلي محمود طه. انظر: ديوانه ص ٤٠ دار العودة بيروت سنة ٢٠٠٤م.

(٢) ، (٣) المجموعة الكاملة ص ٣١٥.

أبـــدا أنشـــد الهنـــاء فـــألقي ** حيـثما رحـت شـقوة الحـس جنبـي
أزرع الـــود والحنـــان وأســـقي ** واحـــة الحـــب مـــن روافـــد قلبـــي
فـــأري الشـــك والجحـــود وألقـــي ** ناتئـــات الأشـــواك تمـــلأ دربي
شـاخ صـبري عـلي الجـراح وسـالت ** أدمـــع عـــن مناحـــة الصـــبر تنبـــي
فحبسـت الأنـين عـن مسـمع النـا ** س لـــئلا يطـــول عـــذلي وعتبـــي
غـــير أني أحـــس بـــالمر يـــزدا ** د و يختـــال مـــا رد اليـــأس قـــربي
فشـكوت الزمـان والنـاس للـــ ** ـه لأن الـــرحمن لا النـــاس حســـبي [1]

علي أن علينا ألا نتعجل – عقب قراءتنا لهذه الأبيات- فنذهل عن حقيقة مشاعر الرجل الأصلية، ونحكم عليه باصطناع الأنين واستطابة الغربة والحرمان وأمثال هذا، ناظرين إلي ما هيئ له من أيام باسمة، وعيش رخي. وغافلين- أو متغافلين – عن مصادر تلك المشاعر ومنازعها الأصلية في التعبير عن أشواقه المكظومة وأحلامه البعيدة. فالذي أعلم: أن "الفيصل" كان يفهم حقيقة "الحرمان" علي غير النحو الذي يفهم الناس. وأنه لم يظفر في حياته الوجدانية الباكرة بما تمني. وأن هذا كان له – بعد- أصداء شقوة لا تنتهي كما تحدث هو عن ذلك فيما أوردته في بعض التناولات الماضية. وحسبه أنه صور شجونه كما ارتسمت في نفسه في سلاسة لفظ ووضوح معني وصدق عاطفة. وحسبه أنه لم يسلك السبيل المعوجة، فيكاثر بما قدم من بيض الأيادي في سواد الأيام، ويسخط علي جهامة الحياة وجفاء بنيها، ويترك نفسه لترمي بها الطرق عبر

(١) ذاته ص ١٧٧ وما بعدها.

الشعاب التائهة، بل بقيت روحه عالية شماء تلتمس الخروج من مضجعها النفسي الموحش في أنسها بالله والقناعة بالركون إليه. كل هذا تجده في شعره الذي أودعه قطعًا من قلبه، ينفس بها عن ذات صدره، ويبثه تباريحه و أمواج هواجسه. وتلك صورة رسمها لقرائه،اتخذ ألوانها من آفاق حياته،واستمد ظلالها من تطواف حسه، واستوحي لوعتها من قلق نفسه، وحين رغب في أن تخرج إلي الناس عملاً أدبياً استعار لها تعبيراً من روحه القوي لتنسكب في آذانهم كاملة كما صور:

أيها العاتبون زهدي بصحبي ** وعزوفي عن العتاب المرير

أيها الضاحكون مما ألاقي ** في زماني من العقوق المثير

لا تلوموا الغريق في غمرة الغم ** إذا فاض دمعه في الزفير

أنا أحيا في البعد عن صخب النا ** س لأبقي في صحوتي مع ضميري

لي صمتي وآهتي وسكوني ** ولكم كل متعة وحبور

إن كل الوجود لا يعدل الزهـ ** د بدنيا ما آلها للسعير

فاهزجوا واطربوا لطول شقائي ** فبربي وصلت كل مصيري[1]

وشيء آخر فر إليه كلما أحس الضيق أو مسته الشدة، ووجد في الاحتماء به ما يمنحه الراحة والسكينة. ويمسح عليه في رفق وحنان. إنه عالم الطبيعة، رفيقه ومؤنسه:

مثلما يشرق الضياء علي الأفـ ** ق، وينهل عبر خضر الروابي

وكما تسبح الخمائل في العطـ ** ر، وتهمي بالطيب مثل السحاب

(١) ذاته ص ١٨١ وما بعدها.

هكـــذا تشـرق الأمـــاني بنفسـي ** وتهـــز الأحـــلام غـــض إهـــابي
فـــأحس الوجـــود ملكـــي، وأنسي ** كـل مـا فيـه مـن أسي وعـذاب [1]

نعم، لقد ملأت مرائي الطبيعة ومجالي الكون شعاب قلبه بالإعجاب، وأيقظت في نفسه ذكريات خابية أو عواطف غافية نسخت ظلال فتوره وبددت ظلام كآبته وأشعلت خمود حبه، فانطلقت لهاته تصدح:

حـدثيني يـا بكـر حبـي عـن الأمـ ** س فـــإني أرتـــاح للـــذكريات
واحمليـنـــي عـــلي جـــوانح حلـــم ** مشرق الوجـــه، رائـــع القســـمات
واسـتعيدي ذكـري غـرام طـروب ** راقـص الجـرس، عـاطر النفحـات
أيـــن منـــه رجـــع العنـــادل فجـــرا ** وحـــديث الشـــعاع للنســـمات
أيـــن منـــه قيثـــارة في ضـــلوع ** تتلـــوي عـــلي صـــدي الآهـــات
حـــدثيني عنـــه بصـــوتك إني ** أتمنـــاه دائـــم الهيـــنمات
وعـــلي مســـمعي المشـــوق أعيـــدي ** قصـــة أفســـدت ظنـــون الوشـــاة
ذكريـنـــي بـــالأمس يـــا فجـــر حبـــي ** إنـــه بـــارق المنـــي في حيـــاتي
ذكريـنـــي بالوشوشـــات عـــذابا ** بالليـــالي عـــلي المـــدى مقمـــرات
ذكريـنـــي بـــالهمس بالطيـــب بـــالآ ** ه، بأنغـــام قلبـــي الراقصـــات
يـــوم نـــام الوجـــود عنـــا، وكنـــا ** وحـــدنا طـــائرين بالصـــبوات
النجـــوم الوضـــاء تحنـــو علينـــا ** بعيـــون مـــن الســـنا ألقـــات

(١) ذاته ص ١٩٤.

وعلينـــا مـــن الصـــفاء وشـــاح ** طرزتـــه بـــوارق النـــيرات
حـــدثيني عـــن أمســـنا واســـتزيدي ** منـــه وقـــدا للأضـــلع الخافقـــات[1]

وتشدو:

أحبـك فـوق مـا يصـف الكـلام ** ويهجـــرني إذا غبـــت المنـــام
وأهـــوي فيـــك أنســـاما رقاقـــا ** عـــلي نهـــداتها شـــف الهيـــام
كأنـــك دوحـــة للحســـن خصـــت ** بكـــل الســـحر والـــدنيا رغـــام[2]

علي هذه الوتيرة يمضي الشاعر في قصائد كثيرة، مبيناً أن مفاتن الجمال الطبيعي تهز النفس وتصبي المشاعر، وتملأ خياله بالتأمل الحالم، وذهنه بالتفكير الرفيع، وشعوره بالطرب الباسط، وتطرد عن قلبه السأم، وتجدد فيه الشوق، وتحيل الملل ألوان الجدة، ورتابة الحياة حرارة التنوع. ومما ينبغي ملاحظته في هذا السياق أنه يربط أو يمزج الحب بمظاهر الطبيعة. كلاهما يذهب عن صمته الانقباض، وعن سكونه الوحشة. وكلاهما يملأ الجو عطرًا والعيون سحرًا والقلوب فتنة. يقول:

أنـــت أغـــلي مـــن الحيـــاة وأحـــلي ** مـــن نشـــيد الصـــفاء في مـــيلادي
أنـــت نفـــخ الطيـــوب يمـــلأ دنيـــا ** ي ويبقـــي أريجـــه في امتـــداد
فالتقـــت نظـــرة العيـــون الهيـــامى ** واحتفـــي الـــدوح بـــالهزار الشـــادي
واســـتراح الفـــؤاد بعـــد عنـــاء ** واختفـــت آهـــة الأســـى والبعـــاد
وانتشـــينا بعـــد النـــوى والتنـــائي ** نشـــوة الـــروض أمطرتـــه الغـــوادي[3]

(١) ذاته ص ٣٤٢ وما بعدها.

(٢) ذاته ص ٢٢٦.

(٣) ذاته ص ٢١٤ – ٢١٥.

ولنتأمل هذا المزج كذلك في هذه الأبيات موزعة بين الصورة الناطقة التي أبدعتها الطبيعة والمحاكاة الصادقة التي أخرجتها القريحة:

أنـــا والليـــل ســـاهران حيـــارى ** شـــفنا الســـهد واحتوانـــا الوجـــوم
والســـكون الرهيـــب يطـــوي رؤانـــا ** بظـــلام يطـــوف حيـــث نهـــيم
كلنـــا شـــارد الخطـــي غـــير أني ** مـــثخن بـــالجراح وهـــو ســـليم
هـــو يرعـــي النجـــوم أني تبـــدت ** وأنـــا أطبقـــت عـــلي الهمـــوم
لا لســـاني شـــاد ولا القلـــب زاه ** والســـكون الطويـــل حـــولي مقـــيم
لا حبيـــب أرنـــو إليـــه حـــوالي ** ليـــبرا مـــن أصـــغري الكلـــوم
وحشـــتي وحشـــة الزهـــور عـــداها ** ريـــق الطـــل واحتواهـــا الســـموم
فتعـــرت مـــن الطيـــوب وأمســـت ** ذابـــلات الأغصـــان وهـــي هشـــيم
أيهـــا الليـــل يـــا أليـــف ســـهادي ** يـــا نـــديمي إذا جفـــاني النـــديم
يـــا أنيســـا في وحـــدتي وعـــذابي ** يـــا صـــديقا عـــلي الوفـــاء يـــدوم
مخطـــئ مـــن يقـــول عنـــك مقيـــت ** كـــاذب مـــن يقـــول عنـــك بهـــيم
أنـــت مجـــلي الإلهـــام في بســـمة الفجـــ ** ر، وبـــين الأصـــحاب أنـــت الحميـــم
أنـــت للعاشـــقين خـــير صـــديق ** صـــان سر الغـــرام وهـــو علـــيم
أنـــت للبائســـين دنيـــا أمـــان ** رحبـــت فيـــك ســـاحة وتخـــوم
أنـــت لي ملعـــب أروح وأغـــدو ** بـــين أفيائـــه ولا مـــن يلـــوم
أيهـــا الليـــل يـــا نجـــي حنينـــي ** أنـــت أحـــلى مـــا أرتجـــي وأروم

فالصـــفاء الـــذي حملـــت أنـــيس ** والســكون الــذي بعثــت رحــيم [1]

وواضح أن الطبيعة تستحيل في شعره بحسب مزاجه أو حالته النفسية. فطورًا يكون شعره نغمًا حلوا كبعض النماذج المتقدمة، وطورًا تسري في جوه أنفاس التبرم وحرج الصدر. كقوله:

لا الصد يشجي ولا لقياك تسعدني ** فما أنا مثل ما قد كنت تعهدني

فــلا البلابــل تســبيني صــوادحها ** ولي مطلع النور إن غنت علي فنن

ولا الزهــور إذا مــا الطــل بللهــا ** تــوحي لي الشعر أو بالحسـن تفتنني [2]

وقوله:

يـا طـير هيجـت آلامـي وأشـجاني ** بـما تغنيـه مـن ألحـان ولهـان

بي مثل مـا بـك مـن أحـزان مغـترب ** فالكـل منـا وحيـد مـا لـه ثـان

بعثــت شــكواي ألحانــا مرتلــة ** وأنــت شــكواك ترجيــع لألحــاني [3]

وقوله:

أسـهر الليـل والنجـوم شـهودي ** وضـلوعي مضـرمات اللهيـب

يـا حبيبـي أصـبحت بالحـب أشـقي ** شـقوة الزهـر بالمكـان الجـديب

أو كـروض صـاد يحـوم عليـه ** سرب غـيم داج وغـير سـكوب [4]

---

(١) ذاته ص ٢٦٥ وما بعدها.

(٢) ذاته ص ٦٦.

(٣) ذاته ص ٦١.

(٤) ذاته ص ٢٤٣وما بعدها .

وقوله:

لا تسـألِيني عـن جـراح الهـوىٰ ** وكيـف واراهـا أنـين الفـؤاد
ولا عـن الـدمع الـذي هاجـه ** حـب مضيٰ خلـف سـحيق الوهـاد
فقـد طوينـا حبنـا وانطـوت ** سـتارة الوجـد وعـز المعـاد
وأصـبحت عنـدي لحـون النـوىٰ ** صـدي غنـاء يلتقـي بـالجماد
والقمـر الهـيمان مـن فوقنـا ** أوغـل في عليائـه واسـتزاد
والروضـة الغنـاء قـد صـوحت ** وأصـبحت أزهارهـا كالقتـاد [1]

ومؤدي هذا جميعه أنه وظف مشاهد الطبيعة وروائع الحسن في الوجود، معبرًا بها عن خلجاته، وخالعًا عليها خطرات وجدانه، فإذا هي تنبض بالحياة وتجيش بالحركة. علي أنه لم يرفي جمال صاحبته مثالاً لجمال مثالي رائع يتدفق في النهر والزهر والشجر والبدر والأفق وشتي مجالي الطبيعة الناطقة والصامتة فحسب، بل ذهب إلي مدي أبعد من هذا حين جعل هذه المجالي تقبس من حبيبته البهاء وتستمد منها الحسن، فشاء- أو شاء له هواه – أن يهتف:

يـا حبيبـا أحببـت مـن أجلـه العمـ ** ـر، وأوقفـت كـل حبـي عليـه
لـو ملكـت الوجـود وهـو بقـربي ** لوضـعت الوجـود بـين يديـه
الصـفاء البهـي منهـل عينيـ ** ـه، ولـون الـورود مـن وجنتيـه
طيـب أنفاسـه عبـير العشـايا ** هزهـا النشر فاسـتراحت إليـه

(١) ذاته ص ٢٦٩وما بعدها.

عشـــقته النجـــوم والبـــدر حتـــى ** غـــار قلبـــي عليـــه مـــن عاشـــقيه
وارتمـــي النـــرجس الصـــبيح بعينيـــ ** ه يعـــل الفتـــون مـــن ناظريـــه
قـــده يـــا لقـــده غصـــن بـــان ** يتهـــادي الـــرواء مـــن طرفيـــه [1]

وأن يقول:

حبيبـــي زدني في هـــواك تعلقـــا ** وطـــر بي في أجـــواء حبـــك أنعـــم
فـــلا البـــدر أبهـــي مـــن فتونـــك نضرة ** ولا الطيـــب إلا مـــن ثنايـــاك يرتمـــي
وأقسمت أن أرعي هواك علي المدى ** رعايـــة ســـاقي الـــورد رقـــة بـــرعم
فكـــن لي عـــلي مـــر الليـــالي منـــارة ** تبـــدد عـــن دنيـــاي كـــل تجهـــم [2]

وأن يقول:

عرفتك يا أبهي من الفجـر طلعـة ** خجولا كأنفاس البراعم في الورد [3]

وأن يقول:

كلـــما أقفـــر ليـــل خلتـــه ** يـــا حبيبـــي صـــفحة مـــن وجنتيـــك
وإذا غـــرد طـــير في الضـــحى ** سرحـــت ألحانـــه تســـعي إليـــك [4]

---

(١) ذاته ص ٢٧٢ وما بعدها.

(٢) ذاته ص ٣١٠-٣١١.

(٣) ذاته ص ٣٥٠.

(٤) ذاته ص ٣٦٩.

وهكذا عاشت الطبيعة في وجدانه، وكان لها دور في ترطيب مشاعره الحري، ولم يستطع أن ينساها حتي في أغراضه الأخرى. ففي شعره الوطني يطلب إلي قادة الفكر في ربوع بلاده أن:

جعلوا الحرف ضاحكا كالأماني ** وانشروا النور بالصداح الرخيم [1]

وفي ثنائه علي "شوقي" الذي حلق في كل جو، وسطع في كل أفق، واحتل بشعره أرفع منزلة تخيلها شاعر في العصر الحديث، وكانت أنغامه ابتسامة في وجه الزمان العبوس تتبدي هذه الصور. وكذلك في مدحه "مصر" وكيف كانت غرة في جبين التاريخ علي اتساع رقعته وامتداد ساحته. مجليًا أنه إذا خطر لك أن تذهب إلي أماكنها الخلابة الوادعة تجيل بصرك في أرجائها ومناحيها وقع منك الطرف علي نيل يجري ماؤه رقراقاً سلسالاً، وعلي قوم ضرب المجد أطنابه فيهم، ينزلون الغريب ويحلونه منهم محل النفس. إن أرضهم وبلادهم تذكر بنعم الله، كأنها الفردوس الموعود. كما تتجلي هذه المرائي في مدحه "عاهل المغرب" حين يعرضها في معرض كريم، فإذا هي أو هو مشرق الجبين، وضاء المحيا:

أنت فرع وارث من دوحة ** تلتقي أعطافها بالسحب

ملك شهم كريم قائد ** وسليل الأكرمين النجب

وتتجاوب مشاعره مع تلك المرائي فيفيض مدها وتزحف آثارها علي شعره في "فلسطين" الأبية. إننا نلفي الجمال يميس في أعطاف الصور في حديثه عن الفدائيين. فبعد أن أوقد من عزائمهم، وأكد أن مسيرة كفاحهم الخالدة ستكلل بالنجاح، أنبأ أن الفجر سيبزغ يضيء المسالك أمامهم في حنادس الحياة.

******

(١) ذاته ص ١٥٨.

هكذا ملكت الطبيعة علي "الفيصل" حواسه وهزت أوتار ذاته، وأوحت إليه بكثير من رائق النظم، مستغلاً ما في مظاهرها الخلابة من ظلال نفسية وشحنات عاطفية، فامتلأ وجوده الخالي، وارتوي قلبه الصادي، وسكن حسه الفائر. نعم، لقد ائتلف بها، ورأي في حسنها الفينان جمال حبيبته، وعشق انسياب جداولها، ونوافح ريحانها، ونواضر ورودها وزهورها في حياته وبعد مماته.أرأيت إليه يقول من قصيدته: "أطيلي الوقوف":

وحطـي عـلي القـبر بعـض الزهـور ** ففـي الزهـر ذكـري لقًـا ممتـع!! [1]

(١) المجموعة الكاملة ص ٧١.

المبحـــث الثالث
السمات الفنية في شعره من منظور نقدي

لا يعزب عن البال أن شعر هذا الشاعر لا يخرج عن إطـار مـا أسـماه النقـاد (الشـعر الغنائي)، ذلك الذي " ينبعث عن الوجدان الخالص، مترجما عن الأحاسـيس والمشـاعر الذاتية. وليس هذا التعبير الوجداني وقفا علي الناحية الذاتية المحضة، فإنه يواجه المسائل العامة والقضايا الاجتماعية لكن من خلال وجدان الشاعر وتـأثره الـذاتي، وتجاوبـه مـع المجتمع حيالها " [1]. ولئن كان لهذا الشعر الغنائي عناصر أدبية هـي: الفكـرة والعاطفـة والعبارة والموسيقي إنه يتفاضل بقدر ما يتوفر لعناصره هذه من قواعد عامة وخصائص يمكن عن طريقها تقويم شعر الشاعر والحكم له أو عليه.

وبعد، فما مدي ما حققه " الفيصل " في شعره من تلك الخصائص الفنية ؟

لعل السطور الآتية تتكفل بالإجابة عن هذا السؤال إن شاء الله ويسر !

المعانـي والأفكار

- ١ -

تجنح معانيه – في عمومها – إلي البساطة وتنأي عن التوغل والتعقيد واللبس. يلمس ذلك قارئ شعره دون أن يبذل إلا أيسر الجهد. وكأنما أراد لمعانيه أن تكون كحياتـه غـير معقدة ولا ملتوية. نعم، ممثلة حقيقته وراسمة طبيعته، ومقدمة صـورة ناطقـة لمـا يخـتلج بين جوانحه وحشاياه. وفي كثير مما مضي مـن أبيـات وقصـائد شـاهد هـذا ومنـه أيضـا قصيدته (أقول):

(١) في النقد الأدبي عند العرب د. محمد طاهر درويش ص ٢٧٠ وما بعدها. دار المعارف ١٩٧٩م.

أقــول وكيــف لا يصــغي الجبــان ** أدان بـــما يقـــول ولا يـــدان

ومــا يجــري اللســان بغــير وحــي ** مــن المــوحي ومــا يعصي اللســان

ومــا قارفــت مــن ذنــب ولكــن ** عــلي إرغامنــا يرخــي العنــان

وألقـــي في ذري عليـــاك بـــؤسي ** كــذا الأحــرار في دنيــاك هــانوا

وللشــك المريــب أصــخت ســمعا ** لمــا ترجـــو فكـــذبك الزمـــان

ومــا ترجــو ســوي إقــلال شــأني ** كــذاك لنــا عــلي الأيــام شــان

وإني في ذري عليـــاك نجـــم ** يؤلقـــه الســـمو والاتـــزان

وإن عميــت عيــون عــن شــموس ** مضــيئات فقــد يعمــي العيــان

وقــد تعمــي القلــوب فليس يهــدي ** بصـــائرها الحـــديث ولا البيـــان

ولكــن الحــوادث ســوف تبــدي ** لــدنيانا مــن ائتمنــوا فخــانوا [1]

وقصيدته " يامالكا قلبي " [2] التي جاءت نبعة من شاعريته المتدفقة بالغناء الصادح:

يـــا مالكـــاً قلبـــي ** يـــا آسرًا حبـــي

النهـــر ظمـــآن ** لثغـــرك العـــذب

يا مالكاً قلبي

قـــل لي: إلي أيـــن المســـير ** في ظلمـــة الـــدرب العســـير

طالـــت لياليـــه بنـــا ** والعمـــر لـــو تـــدري قصـــير....إلخ

(١) المجموعة الكاملة ص ٤١٦ وما بعدها.

(٢) ذاته ص ٤٤١ وما بعدها.

-٢-

ونجم عن ابتعاده من الإغراق في المعاني والأفكار أن أتت موسومة – في الغالب – بالوضوح. ومما أعان علي وضوحها صياغتها في أسلوب سهل كما سيأتي الحديث. وأنه كان ينظم ما تفيض به خواطره دون إبهام أو خروج علي المألوف. ثم إن له بعض قصائد ألقاها في مناسبات ومهرجانات متعددة، اقتضت تلك القصائد – حسب طبيعة الموقف والموضوع – أن يأتي المعني واضحًا والفكرة قريبة إلي قلوب الجماهير، فهذا أدعي لإثارة حماستها وتحريك حشودها. ومثل ذلك يظهر في قصائده (من ربي الشرق [١] اليوبيل الذهبي [٢] –المشارف الخضر [٣] منار الهدي (٤) إلخ).

ومهما يكن من شيء فوضوح معاني الشاعر – أقصد الوضوح الذي لا يبلغ حد السطحية فيفقد الفن الشعري خفاءه وإيحاءه ولا يبلغ حد الغموض فيفضي إلي الإلغاز والتعمية – هذا الوضوح يعد ميزة لا ضعفًا أو عيبًا. وذلك لأن " وضوح المعني مقياس من جودة الشعر. أما الغموض فمما يضع الشعر ويحط من قيمته " [٥]. ولعلي لا أجافي الحقيقة إذا قلت: إن الشاعر متأثر في منحاه هذا بطبيعة الشعر العربي. ذلك الشعر:

(١) ذاته ص ١٦٧ وما بعدها.

(٢) ذاته ص ٣٧١ وما بعدها.

(٣) ذاته ص ٤٣٣ وما بعدها.

(٤) ذاته ص ٤٢٣ وما بعدها.

(٥) أسس النقد الأدبي عند العرب د. أحمد أحمد بدوي ص ٤٤٥ دار نهضة مصر للطبع والنشر. الفجالة / القاهرة ١٩٧٩م.

" الذي لا يحوج فهمه إلي فلسفة إلاّ ما جاء مع مُر العصور عن طريق موارد أجنبية... والشاعر العربي قلَما يكسو فكره غموضًا، ولذلك لا يرمز ولا يومئ من بعيد، ولا يدور ولا يلف، بل يعبر مباشرةً عمَا يريد ويكشف عن مراده كشفًا. ومن هنا كان شعوره بل تفكيره مجردًا لا تسدل عليه حجب ولا أستار، فهو لا يعرف الحجب ولا الأستار في حياته [1].

-٣-

وفي شعره تترقرق المعاني الروحية السامية التي تستوحي عقيدة الإسلام الصحيحة، وتتشبع بروحه ومبادئه. ألحظ ذلك في وطنياته وغزلياته وفي حديثه عن الطبيعة الذي يكشف عن نزعته المثالية في تذوق الجمال:

سوف أبقي ثبت العقيدة صلبًا ** وشغوفًا بخلقي المراح

كلّما جرد الزمان سلاحًا ** مكن الله باليقين سلاحي [2]

وتأسيسًا علي هذا أذهب إلي أن شعره – في أغلبه – ذو مضمون إنساني عميق. لقد تغلغل حب هذه المعاني في قلبه، فهيمنت علي وجدانه، وتحكمت في تفكيره معاني: الحق – الخير – الجمال – الحب – العدل – المجد – العز – العلا – العلم – الحلم – الجود – الحكمة – النور – الأمل – السلام –الإخاء – البناء – الرخاء – الصلاح – الإباء – الحياء – الصدق –العطاء – الطهر – الفجر – الضياء – الفداء – الهناء – الصفاء –

(١) دراسات في الشعر العربي المعاصر د.شوقي ضيف ص ٢٨٣ وما بعدها. الطبعة السابعة ١٩٧٩م دار المعارف.

(٢) المجموعة الكاملة ص ١٨٠-١٨١.

السماحة – النبل – الضمير – الوفاق – الصبر – الشهادة – الرفق – الوئام – النصر – الريادة – الأماني... إلي نحو ذلك من نبيل الخصال وكريم الأخلاق التي تجعل الإنسان إنسانًا. ولعل حرصه علي ترديد هذه المعاني في شعره يرجع إلي نشأته الدينية وثقافته الإسلامية وحّسه المرهف وروحه اللطيف وحبه الإنسانية.

إنني أري هذه المعاني في بعض قصائده الدينية. فبعد أن يخبت فيها إلي ربه في إنابة ضارعة، ويحمده حمد الشاكر الذي عرف حق الله عليه، قائلاً :

إلهي يا ربّا عبدك طاعةً ** وتقوي وإيمانًا بأنك تعبد

إليك فؤادي خاشعًا وجوارحي ** إذا سرت أو وقفت أو أتهجد

وما دمعت عيناي إلا توسلاً ** وشكراً لنعماك التي لا تحدد

وجودي وما يحوي الوجود بأسره ** رذاذ عطاياك التي ليس تنفد [1]

بعد هذا يذكر أن الله تعالي وتعظم وهب الدنيا للإنسان، وسخرها له، وخلقه في أحسن تقويم، ومنحه العقل وميزه به ليضحي مصدر هداية ومنارة وإسعاد. إلا أنه نكب عن الصراط، ولج في العناد، فظل هائمًا علي وجهه، حائراً لا يدري له غاية أو هدفا، وطغي فعانق الشيطان، فزين له سوء عمله، فاستعذب مسالك الغواية، وضرب في وديانها، وهجر الإيمان فألحد. ولولا أن ثمة نفوساً زاكية تشع التقي، وتمجد الله، وتسري تسابيحها لله رب العالمين نورًا يعمر الكون ليل نهار وصباح مساء لما كان خير، ولا طاب عيش:

(١) المجموعة الكاملة ص ١١٧.

وهبت لنا الدنيا وذللتها لنا ** فلان لنا صخر وأخصب فدفد
وأطلقنا شكلاً وعزمًا ومنطقا ** علي خير ما نهوي ونرضي وننشد
وميزتنا بالعقل حتي نري به ** صراطاً قويمًا حيث نهنا ونسعد
وقلت لنا: سيروا عليه فضللت ** بصائرنا الأهواء للعقل تفسد
وهمنا علي درب الغوايات حوماً ** فما قصرت باع ولا أحجمت يد
ظمئنا ولم تشبع ظمانا جهالة ** وتهنا عن العقل الذي فيه نرشد
وهامت رؤانا في متاهات غينا ** كأن لنا يوماً وليس لنا غد
فمنا أناس قد عصوك جهالةً ** ومنا من استهوي خطاهم تمرد
وقد هجر الإيمان بعض أضلهم ** زبانية الشيطان عمدًا فألحدوا
ولولا نفوس منهمو قد تمسكت ** بهديك تستجدي رضاك وتعبد
تسبِّح باسم الله في الصبح والمسا ** ونحوك يعلو حسها حين تسجد
لما ظل في الدنيا من الخير بارق ** ولا طاب للأخيار في العيش مورد [1]

وأري هذه المعاني في حديثه إلي شباب بلاده يحثهم علي التسامي بنشاطهم الفَّوار إلي المستوي اللائق بطالب العلم، فهو أساس الحياة، وباعث النهضة، وباني الأمجاد، ومحقق الآمال. وأراه في حديثه عن أبيه وعن جده:

يا حسامًا في قبضة الحق والإيـ ** ـمان، سلت شباه أعظم راح
راح " عبد العزيز " ملحمة العز ** وأسطورة العلا والكفاح [2]

(١) ذاته ص ١١٨ - ١١٩.

(٢) ذاته ص ١٢٤.

وألمحه في حديثه إلي قادة الفكر في ربوع بلاده، فهم المصباح المنير، والدواء الناجع، والقدوة الصالحة. يحيون في أبناء شعوبهم روح العزة، ويهدون لهم خلاصات تجاربهم، ومنها: أن الزمان يسرق أعمارهم، فأولي ألا يضيعوها سدي:

قادة الفكر في ربوع بلادي ** يا أحق الرجال بالتكريم

أيها الكاشفون عن عتمة الحب ** ر ضياء يختال عبر النجوم

أيها الجاعلون من خرس الحر ** ف دواء لكل نطق سليم

أيها العابرون درب المعالي ** بجياد المثور و المنظوم

خلفكم في الخطي مسيرة جيل ** يتحراكمو بشوق الفطيم

لا تضنوا عليه بالنصح والتو ** جيه فالفكر معدن التقويم

واجعلوا الحرف ضاحكًا كالأماني ** وانشروا النور بالصداح الرخيم

إن من يستطيع بذلاً ويحيا ** دون جود، وفي انكماش عقيم

شأنه في الحياة شأن هباء ** لا يرجي علي الخواء مقيم [1]

كما ألمس هذه المعاني في تغنيه بأمجاد العرب، فهو يشغف بمصر – حصن العروبة الأشم – كما يشغف الحي بالحي، بمفاتن رياضها، وبدائع نيلها، وخصب أرضها، واعتدال جوها، وسخاء أهلها. وهو يلتفت إلي شعب العراق يوم بات الخطر يتهدده، وأخذت أنظار صليبي العصر الحديث تتطلع إليه، من جراء اعتداء قادته علي جيرانهم، فيعرض صفحة الخزي والعار للمعتدين الآثمين و يعرض في مقابلها صفحة لألاءة

(١) ذاته ص ١٥٧ وما بعدها.

تنطق بما لهذا الشعب في القلوب من محبة وتقدير، وتاريخ لا يجهل شأنه. وإنه ليصدر في هذه المعاني والأفكار عن روية وحكمة، وعن انعكاس إسلامي واضح لا يعوزه دليل أو برهان. أو – إن شئت – عن مسايرة المضمون للدين والخلق والعرف. وهو ينوه بالأردن: عروبة ناهضة وشعبًا أبيًا تسنم غارب المجد وطبيعة تتدفق بالخير وتمس القلوب فتهفو وتختلج:

يا ثري أرضنا الحبيبة في البلـ ** قاء، سقيا لكل أرض ودار
سكب الحب عطره في نواحيـ ** ك ففاضت بيانع الأزهار
واستهامت بك الطبيعة نشوي ** ذات حسن في ليلها والنهار
تتباهي بحب شعب أبي ** عربي الحفاظ زاكي النجار
هو عنوان أمة ذات مجد ** عبقري السخاء سامي الذمار [1]

وهو يدعو الفدائيين إلي تعبئة سائر قواهم وفي مقدمتها ثقتهم في ربهم، ويثير في نفوسهم حب التضحية لحماية المقدسات ورد الحق السليب، ويحثهم: أن اطردوا العدو، ولقنوه درسًا يفهمه أن عزة الأمة وكرامة أبنائها ونصرة (فلسطين) فوق كل اعتبار. ويمضي فيؤكد أن الفدائي رجل قوي النفس يأخذها علي الوفاء بالعهد المتمثل في أنه:

لا يرهب الموت ولا يثنـي ** عن عزمه شأن الشجاع المهاب
سلاحه الإيمان في ربه ** وهمة عالية كالشهاب
يدفع عن موطنه طاغيا ** ميزته في الحرب غدر الذئاب [2]

(١) ذاته ص ٤٣٠ – ٤٣١.

(٢) ذاته ص ١٤١. وطالع كذلك ص ١٦٠ وما بعدها

هذا، ولقد كان من المظنون أن ينتفع الناس بإنجازات عصر العلم والمدنية الحديثة، فلا تسخر للظلم ولا تستغل للهوي، لكن الواقع كان علي خلاف ذلك، فقد سخرت للشر المحض والعذاب الخالص. والشاعر ينظر في أحوال العصر- فيجد التسابق علي التسلح، وغياب الضمير العالمي، وفقدان الأمن والسلام الاجتماعي، وعدم ضبط العواطف أمام مطالب الحياة، والإعلان عن الذات في صور فجة انقلبت معها المعايير، مما أفسد الأجواء وشوه الآمال بالمطامع السود والأهواء الأثيمة. إن الأبيات الآتية تكشف لنا عن هذه المعاني، كما نجد أنفسنا مشاركين مبدعها إحساسه بانعكاس مقاييس الحياة التي أفسدتها سياسة الغرب المادي، التي زينت للناس كل أمر إد، وجملت لهم كل قول نكر:

أي عصر هذا الذي يتباري ** فيه حز الظبي بطعن الرماح
تشرق الشمس فيه فوق المآسي ** وتطل النجوم فوق الجراح
لم يعد فيه موئل أو مكان ** لأليف الهنا وخدن السماح
مد شطآنه الجهالة والشر ** وسحق الأجساد والأرواح
الضمير اليقظان فيه جريح ** والنفوس الكبار غير صواح
ضاق عن آهة الجزوع من الإثـ ** ـم وما ضاق عن أثيم الجماح
خرس العندليب فيه، وراحت ** تتغني غربانه في البطاح
واستطالت أشواكه فتداعي ** هلعًا دوحه الوديع الأقاحي
بشر نحن عائشون مع النو ** ر، ولكننا بلا مصباح

لا إخـــاء يزهـــو فنلـــثم خديـــ ** ه ولا قلـــب مشـــفق مســـماح
لا ربيـــع يخضـــو ضـــل الحـــب فيـــه ** بـــل عـــداء تـــدمي بـــه كـــل راح
أيـــن مـــن غينـــا غياهـــب جهـــل ** كـــن بـــالأمس مثـــل هـــوج الريـــاح
أين من عصرنا السلامة والأمـــ ** ن وقـــد بـــات مصـــدر الأتـــراح
كلنا فيه نشتكي غيبة الصفـــ ** و ونهفـــو لعـــذب عـــيش قـــراح
كلنـــا مـــدلج بليـــل بهـــيم ** لكأنـــا نســـير ســـير الأضـــاحي [1]

وبعد هذا الاعوجاج والغلو السقيم أخذ ينظر إلي الأفق البعيد، ويتمني أن تعود المثل الرفيعة والخلال الغر الحسان فتغير وجه الحياة وتمسح عن أهلها عبث العوادي، وتأخذ بأيديهم وتشق لهم الطريق في دياجير اليأس والقلق إلي أضواء المجد والرجاء والصفاء والحق والعدل يطبع كل شيء بطابعه: سيدًا ومسودًا غنيًا وفقيرًا كبيراً وصغيرًا أبيض وأسود، فالجميع أبوه آدم وأمه حواء:

ليـت هـذا الوجـود يمسي ويغـدو ** واحـــة للصـــفاء والأفـــراح
مـــا تحـــل الأخـــلاق فيـــه مبـــاح ** وســـجال الآثـــام غـــير مبـــاح
منطـــق الحـــق شرعـــة الكـــل فيـــه ** لا احتكـــام فيـــه لغـــير الســـماح
وحـــي أحكامـــه العدالـــة والرفـــ ** ـــق وأمـــن الإمســـاء والإصـــباح
ليـت هـذا الوجـود ينعم بالعـقـ ** ل وبالمكرمـــات خضـر المنـــاحي
لا أنـــين المظلـــوم فيـــه شـــجي ** بـــين خـــوف وذلـــة ونـــواح

(١) ذاته ص ١٤٨ وما بعدها.

أو دمـــوع الضـــعيف تســـكب هونًـــا ** تحـــت أقـــدام جـــائر ســـفاح
لـيس للبـيض فيـه فضـل عـلي السـو ** د، بغـير الحجـي وغـير الصـلاح
لا فـــروق في الحـــق بـــين صـــغير ** وكبـــير مـــن العتـــاة الوقـــاح
لا امتياز في العرق، في الحجم في اللـو ** ن، إذا كـــن في نفـــوس صـــحاح
كلنـــا آدم أبونـــا، وحـــوا ** أمنـــا والـــدنا مجـــرد ســـاح [1]

ولأن للشعراء صوتًا يحق أن يسمع، وفكراً يصح أن يحتذي، ورسالة لها أثرها الخطير في حياة الأمم، فإن شاعرنا يطلب إليهم أن ينذروا – أو يبشروا – قادة الشرور بالخسران المبين. ففلاحهم في السلام لا الحرب. وعدة نجاحهم في القول السديد والعمل البناء. ولذة ظفرهم في العقل المستنير لا في الوحشية والعنجهية والجهالة، وذودهم عن حياضهم في الإصلاح لا في التناحر والاصطراع. فلتنطبع روحهم بتلك المعاني. فما الوجود بغير الأمن والسلام والهناء ؟ وما جمال الحياة إذا لم يشملها الحق والحق وحده؟:

سـادة الشـعر يـا سـلاف عبـير الـــ ** فكـــر يـــا نفـــح عرفـــه الفـــواح
أنـــذروا قـــادة الشـــرور بخســـر ** رغـم مـا اكـتظ بيـنهم مـن سـلاح
بلغـــوهم أن الســـلام هـــو الحـــق ** وأفيـــاؤه ظـــلال الفـــلاح
علمـوهم حصـافة القـول والفعـــ ** ل وقولـوا لهـم بصـوت اللاحـي
أيهـــا المشـــترون بـــالحرب نصـــرًا ** لـــذة النصـــر في العقـــول الصـــواحي

(١) ذاته ص ١٥٠ وما بعدها.

حطمـــوا عـــدة الحـــروب وذودوا ** عـــن حمـــاكم بـــالعلم والإصـــلاح
لا تطيـــب الحيـــاة مـــن غـــير أمـــن ** مشـرق كالســـنا بثغـــر الصـــباح
ميـزة العقـل أن نعـيش مـع السلـــ ** م بلحـــــن مشـــــنف صـــــداح
وجمـــال الحيـــاة أن ننشـر الحـــق ** ونمضـي الحيـــاة دون جنـــاح [1]

وحين أرسل تحاياه إلي " النادي الأهـلي المصرـي " بمناسـبة (يوبيلـه الـذهبي) نـراه يقول:

تحيـــة وجـــلالاً أيهـــا النـــادي ** فأنـت زيـن النوادي..حليـة الـوادي
لله أيامـــــك الغـــــراء مشـــرقة ** تزهـــو عـــلي جمـــع فيهـــا وآحـــاد
ســجلت فيهـا مـن الأمجـاد مفخـرة ** عـزت عـلي كـل إعـزاز وأمجـاد [2]

ويصف الخمسين عاماً التي مضت من عمره:

كانـــت ســـجل ليالينـــا تـــذكرنا ** بـما مضيـ مـن تـواريخ وأعيـاد [3]

ثم يعود فيشيد بإنجازات هذا الصرح الرياضي وأهمها لَمّه شمل أبناء العروبة:

جمعـت شـمل بنـي مصر وجـيرتهم ** في حـــاضر مـــن أمـــانيهم وفي بـــاد
وكنـــت مشـــعلنا الوضـــاء نرقبـــه ** ليجمـــع الشـــمل في حفـــل وإســـعاد
فيـــه تلاقـــي بنـــوأم وذو رحـــم ** كـــما التقـــي فيـــه آبـــاء بأحفـــاد

(١) ذاته ص ١٥٢ وما بعدها.
(٢) ذاته ص ٣٧١ و ما بعدها.
(٣) ذاته ص ٣٧١ وما بعدها.

عاشت رحابك بالأرجاء شاسعة ** لساكني مصر بل للناطق الضاد [1]

وفي بحر هيامه وحبه تسبح هذه المعاني سواء أكان ذلك فيما يتعلق بوصفه لاعج الشوق وتباريح الهوىٰ أم كان في وصف ما تحظي به الحبيبة من آيات الجمال الآسر، والرفه المدل:

وساحرتي بعينيها ** وروح كالسنا يسري

وبالبسمات من ثغر ** شهي بالهوىٰ يغري

وباللفتات من جيد ** به ماء الصبا يجري

وبالوجنات فيها الضو ** ء يلهب لونها الخمري

فتحسب أنها شفق ** تلفع هالة البدر

.... أنت ألحاني ** وحلمي في الهوىٰ العذري [2]

ومعني هذا أن الشعر الغزلي الذي انساب علي لسانه التزم – في غالبه – سبيل الفضيلة التي خالطت لحمه ودمه، فكان إنسانًا متوازنًا منفعلًا بالجمال الذي يصله بأسرار الكون ، متسعًا صدره لكل تصور جميل، ومتجاوبًا عقله مع كل تفكير نبيل، حتىٰ في هذا المقام – مقام الغزل – الذي قد تزل فيه القدم. وإن أردت دليلاً علي ذلك فدونك قوله:

وأنا الذي رقت مشاعر قلبه ** كالنور في وضع الضحي المنساب

(١) ذاته ص ٣٧١ وما بعدها.

(٢) ذاته ص ٥١ وما يليها.

وتعلق الحب الطهور بخاطري ** كالطيب بين خمائل وروابي [1]

وقوله:

فإن نسيت وداداً كان يجمعنا ** علي العفاف فقلبي ليس ينساك [2]

وقوله:

همنا بآفاق حب لا حدود لها ** وبثنا الشوق إشفاقاً وتحنانا

أنساني الوصل ما لاقيت من زمني ** في سالف العهد آلاماً وهجرانا

يا مبعث الطهر يا أصل الجمال ألا ** أرجو من الدهر إرجاع الذي كانا [3]

وقوله:

وأهوي فيك أنسامًا رقاقا ** علي نهداتها شف الهيام

كأنك دوحة للحسن خصت ** بكل السحر والدنيا رغام

أري فيك الصباحة كل حين ** وحين تصد يغمرني الظلام

سألتك يا حبيب العمر ألا ** يفرقنا التعاتب والملام

فكن لي مأملاً حلواً إليه ** أعود إذا تناوبني السقام [4]

وقوله:

(١) ذاته ص ٢٣٠.

(٢) ذاته ص ١٩.

(٣) ذاته ص ١٠٧.

(٤) نفسه ص ٢٢٦.

وانثـــري العطـــر في دروبي حتـــي ** ينتشي بـــالأريج طـــول ســـهادي
وأضـــيئي بنـــور عينيـــك حسًّـــا ** لـــيس يحيـــا بغـــير صـــفو الـــوداد [1]

وقوله:

كلـــما ألتقيـــك أنسي همـــومي ** وأخـــلي أثقـــال دهـــري ورائـــي
لســت أخشي منـك النميمـة يومًـا ** أو أري فيـــك شـــامتًا بشـــقائي
مـــن حواليـــك أجـــتلي حلـــم دنيـــا ** ي بعـــين مبهـــورة مـــن رواء
فعـلي ثغـرك الـوضيء يشـع الـد ** ـء كـالوهج في النجـوم الوضـاء
وعـــلي ســـمعك الألـــوف إذا مـــا ** طـــال قـــولي وضـــج فيـــه عنـــائي
ألمـــح الصـــبر والأنـــاة وحلـــمًا ** لا يمـــل اســـتزادة الإصـــغاء [2]

..... إلي غير ذلك من نماذج صالحة للاستشهاد علي ترديده هذه المعاني. ولا أري الاستكثار من هذه النماذج، فقد يبعث هذا علي السأم والملل، وهذا ما تحرص الدراسة علي تجنبه. [3].

(١) ذاته ٣١٢.

(٢) ذاته ص ٣١٧.

(٣) أود أن أحيل إلي مطالعة هذه النماذج في المجموعة الكاملة ص ٢١ وما يليها. وص ٣٠ وما يليها. وص ٤٣ وما يليها. وص ٥٤ وما يليها. وص ٦٣ وما يليها. وص ٨٣ وما يليها. وص ٩٩ وما بعدها وص ١٩٤ وما بعدها. وص ٢٠٠ وما بعدها. وص ٢٠٦ وما بعدها و ص ٢١١ وما بعدها وص ٢٤٨ وما بعدها. وص ٢٦١ وما بعدها. وص ٢٣٠٩ وما بعدها. وص ٣٢٧ وما بعدها. وص ٣٤٢ وما بعدها وص ٣٤٩ وما يليها.

غير أنه من الجدير بالذكر أن هذه المعاني الإنسانية الروحية ليست من ابتكارات " عبد الله الفيصل ". وليس هو أول من تغني بها؛ فقد طرقها قبله غير شاعر، وكان لبعضهم فيها فلسفة معينة. كالشاعر الباكستاني " محمد إقبال" في ملحمته الطويلة (أسرار الخوذئ) أو (أسرار النفس) [١] وكالشاعر المصري محمود أبي الوفائ قصائده (الإيمان – عنوان النشيد – النشيد – أريد) [٢] كما أن كثيرًا من شعراء المهجر وأدبائه تغنوا بهذه المعاني، وصدروا عنها في انسيابية موهوبة، وعفوية متمكنة فـ " دعوا إلي المحبة والتعاون، وهتفوا بالإخاء البشري، وتغنوا بأفراح الإنسانية وشقوا لآلامها، ونقموا علي شرورها ومظالمها، وارتادوا آفاق التأمل والمعرفة لإسعادها، وقادوها إلي الحب والخير والسعادة والمساواة، وبشروا بالحياة المثالية النقية في مجالي الطبيعة وحاربوا العيوب والنقائص الاجتماعية، ورسموا الأهداف والمثل الرفيعة، وجملوا الحياة للناس، وشدوا بمباهجها، ونفَّروا من التجهم لها والتشاؤم منها، علي نحو ما نري في أدب التفاؤل عند مثل (أبي ماضي) " [٣]

١) انظر: مجلة الأزهر – عدد غرة المحرم ١٣٩٩ هـ ديسمبر – ١٩٧٨م من مقال بعنوان: الإنسان الكامل في نظر محمد إقبال. بقلم العلامة أبي الحسن الندوي.

(٢) راجع: محمود أبو الوفا: دواوين شعره ودراسات بأقلام معاصريه ص ٣٥ وما بعدها وص ٤٢ وما بعدها وص ٥٩ وما بعدها وص ٨٦ وما بعدها علي الترتيب. مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.

(٣) الأدب العربي في المهجر.د. حسن جاد حسن ص ٣٣٤. الطبعة الأولي ١٩٦٢م.

وإذا كان شاعرنا مسبوقًا بسواه في تناول هذه المعاني، والدعوة إليها فحسبه أنه آمن بها، واحتواها ذهنه، وانطلق يوقع عليها ألحانه متغنيًا بها، ومنضراً بها وجه الحياة، وواجدًا في ذلك متنفسًا لعواطفه وراحة لنفسه.

-٤-

ومما سلف يتبين أنه سلك إلي معانيه سبيل القصد والاعتدال، إلا أن بعض أبياته وعت معاني غارقة في المبالغة، مجردة عن الحق. كقوله من قصيدة (ضياع) [١]:

نظمت شعوري فيك معني مجنحاً ** وأشهدت في حبي لك الأنجم الزهرا
وكم في الرمال البيض خطت أناملي ** علي الشاطئ النديان من حبنا سطرا
وما كنت أخشي الدهر يمحو سطوره ** لأن هوانا البكر لا يرهب الدهرا

وقوله لمحبوبه:[٢]

ليس للعيش بعد نأيك طعم ** والعشايا محفوفة بالملال
تشرق الشمس أو تغيب فإني ** بالضيا والظلام لست أبالي

وقوله [٣] لها:

وأنت محراب قلبي ** فحيثما كنت يسجد

(١) المجموعة الكاملة ص ٢١٧.

(٢) نفسه ص ٤٤٦.

(٣) ذاته ص ٣٤.

وقوله [1]:

وإن لاح في بـــابكم عـــاذل ** مررنـــا بـــه ركعًـــا ســـجدا

وقوله [2]:

ولســت إلي ســواك أعــير طرفــاً ** ولا تحنـــي أمـــام ســـواك هـــام

وللشاعر أن يتيه بصاحبته، ويذيع علي الوجود محامدها لكن لا إلي الحد الذي معه يشط ويسرف وتتورم معانيه. فليس من السائغ أن يزعم زعماً عريضاً بأنه لا يخشي الدهر، وأن هواه البكر لا يرهب الدهر، وأنه لا يكترث بإشراق الشمس أو مغيبها، وأنه – مؤكداً كلامه بـ (إن) – لا يبالي بالضياء والظلام، وأن الهامات لا تحني إلا أمام صاحبته،و...و....إلي غير ذلك من ادعاءات في هذا الباب تأباها النفوس المتشوقة إلي تحليق الفن الشعري في سماء القصد لا تزيغ أبصار الشعراء عنه ولا تطغي. والمعني في بيته " وما كنت أخشي الدهر..." يعيد إلي الأذهان تجاوزات " ابن سناء الملك " في أبياته:

سواي يخاف الدهر أو يرهب الردى ** وغـــيري يهـــوي أن يكـــون مخلـــدا

ولكننـــي لا أرهـــب الـــدهر إن ســـطا ** ولا أحـــذر المـــوت الـــزؤام إذا عـــدا

ولو مد نحـوي حـادث الـدهر طرفـه ** لحـــدثت نفسـي أن أمـــد لـــه يـــدا

وقـدما بغـيري أصـبح الـدهر أشـيبا ** وبي بـل بفضـلي أصـبح الـدهر أمـردا

---

(١) ذاته ص ٩٥.

(٢) ذاته ص ٢٢٦.

وإنــك عبــدي يــا زمــان وإننــي ** علي الكره مني أن أري لـك سـيدا [1]

والمعني في أبيات "محروم" الثلاثة الأخيرة ما كان له أن يستهوي قلم مؤمن كعبـد الله الفيصل يعيش في مهبط الوحي.

وكنت قد ألفت من صنيع الشعراء في هذا البـاب أن يسـتعملوا أدوات تخفـف حـدة وقع التهويل والمبالغة علي نفوس المتلقين، كالإتيان بـ " لولا" و " كاد " و " لو " بيـد أن صاحبنا لم يفطن إلي هذا إلا في النادر القليل. ومهما يكن فمثـل هـذه المبالغـات قليـل في مجموع شعره، مما يجعلني أصرح بأنه من أولئك الشعراء الـذين يـؤثرون – في الغالـب – الصدق في نشر أفكارهم وينزعون إلي تصوير الواقع سواء الخارجي منه والنفسي.

-٥-

ومما تبين لي من معاودة النظر في شعره أنه يكرر المعني الواحـد في شـطر بيـت، أو في بيت، أو قصيدة، أو أكثر منها. وشاهد مـا وقـع مـن ذلـك في شـطر بيـت قولـه مخاطباً الطير[2]:

بي مثل مـا بـك مـن أحـزان مغـترب ** فالكــل منــا وحيــد مالــه ثــان

فالقارئ لقوله (فالكل منا وحيد) يفهم أن كلا من الطير والشاعر وحيد لا أنيس له، فإذا انتقل القارئ إلي قوله (ماله ثان) أدرك هذا المفهوم أيضاً. فلا فارقة – إذًا – بين

(١) ديوان ابن سناء الملك (لقاضي السعيد عز الدين أبو القاسم هبة الله. اعتني بتصـحيحه والتعليـق عليه وتقديمه المرحوم الدكتور: محمد عبد الحـق ص ١٦٥ ومـا بعـدها. دار الجيـل – بـيروت – ١٩٧٥م.

(٢) المجموعة الكاملة ص ٦١.

العبارتين في المعني. ومن هذا الوادي قوله [1]:

لا تبـــوحي بسـرنا واكتميـــه ** عـل يومـاً نعـود للوصـل فيـه

وشاهد ما جاء من ذلك في البيت الواحد قوله [2] عن شباب بلاده:

قـــد فـــارق الجهـــل العقيـــ ** م وهـــش للعلـــم اللبـــاب

فمعني الشطر الثاني هو هو معني الشطر الأول، فإذا كان الشباب السعودي قد ودع الجهل فإن معني ذلك أنه قد أقبل علي العلم وهش له، وهذا ما حمله الشطر الثاني من البيت ومن هذا قوله [3] لصاحبته:

مـا بـال قلبـك ضـل عنـ ** ـه [4] فـما اهتـدي يومـاً سـبيله

فواضح أن لا فارق بين الصدر والعجز في المعني.

ومن شواهد تكرار المعني الواحد في القصيدة الواحدة ما أتي في قصيدة (سمراء) [5] من تكرير معني أن حبيبته أمله ومناه، أو أمنيته وهواه؛ إذ يقول في أولها:

---

(١) ذاته ص ٣٧٣. ولعدم الاسترسال في تعداد الأمثلة أشير إلي أرقام هذه الصفحات في المجموعة الكاملة: ص ٩٠ – ١٠٣ – ١٦٩ – ١٨٥ – ١٨٦ – ١٩٣ – ١٩٦ – ٢٩١ – ٣٠٦ – ٣٠٩ – ٣١٩ – ٤٢٢.

(٢) ذاته ص ٣٩.

(٣) ذاته ص ٤٨. وانظر – أيضا – ٤٤ – ٦٧ – ٦٨ – ٧٠ – ٧٨ – ٨٤ – ١٠٠ – ١٠١ – ١٤١ – ١٥٢ – ١٦٠ – ٢٢٤ – ٢٨٧ – ٣١٧ – ٤٢٥ – ٤٣٤.

(٤) الضمير يعود إلي قلبه.

(٥) المجموعة الكاملة ص ٤٧و ما يليها.

سـمراء يـا حلـم الطفولـه ** يـا منيـة الـنفس العليلـه

وفي نهايتها مع تكرار بعض الألفاظ :

سـمراء يـا أمـل الفـؤا ** د وحلمـه منـذ الطفولـه

وتكرار هذا المعني يوضحه ويقويه، كما يكشف عن شفافية روح الشاعر، وعن عميق تعلقه بسمرائه التي لا يتصور الحياة بدونها ومن هذا أيضاً تكرير معني: عدول العرب – عقب معارك الثورات المتتابعة التي أوقدها المجاهدون في فلسطين – عن خطة الكلام إلي منطق القوة. وذلك إذ يقول [1]:

وأصـبح المـدفع مرسـالنا ** للظـالم البـاغي وليس الخطـاب

وإذ يقول [2] في القصيدة ذاتها:

لا خطـب كـالأمس يلهـي بهـا ** ولا ضـجيج هـادر في الهـواء

وإنـما تزحـف آسـادهم ** نحـو العـدا منـذرة بالفنـاء

وتكرار هذا المعني يؤكد تصميم العرب علي التسلح بالقوة لاسترداد الأرض المغتصبة. فمصاب فلسطين لن يجدي معه الكلام والخطب والتصريحات. ورحم الله أمير الشعراء "شوقي" حين لفت إلي هذا المعني – معني الاعتماد علي القوة في استعادة الحقوق – قائلا [3]

(١) ذاته ص ١٣٩.

(٢) ذاته ص ١٤٣. وراجع ص ٣١٧ ، ٣٢١، ٣٢٢. وص ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧.

(٣) الشوقيات الجزء الثاني وتعليق د – يحي شامي ص ٥٢٤ – الطبعة الأولي ١٩٩٦ دار الفكر العربي –بيروت.

الملـك والـدولات مـا يبنـي القنـا ** والعلـم لا مـا ترفـع الأحـلام
والحـق لـيس – وإن عـلا – بمؤيـد ** حتـى يحـوط جانبيـه حسـام
خـط النبـي براحتيـه خنـدقا ** ومشـي يحـيط بـه قنـا وسـهام

ومن شواهد تكرار المعني الواحد في أكثر من قصيدة ترديده معني أن له قلباً رقيقاً. ففي قصيدة (الألم الحي) يقول[1]:

إنـما والأسـى يحـدث عنـي ** لي قلـب في رقـة الأنسـام

وفي قصيدة (ابنة الأحزان) يقول [2]:

وأنـا الـذي رقـت مشـاعر قلبـه ** كـالنور في وضـح الضـحي المنسـاب

.....إلي غير ذلك من معان أكثر الشاعر من تكريرها في شتي شعره؛ مما يدل علي اهتمامه بهذه الظاهرة. غير أن تشبثه بها قد أدي به – أحياناً – إلي سوق المعني المكرر في ألفاظ متخاذلة، وفي أسلوب أشبه بالنقل الآلي المباشر للغة اليومية المعتادة. ولهذا محل من الحديث قريب.

-٦-

ووحدة الموضوع خاصية بارزة في شعره. فقد قصر قصيدته علي غرض واحد تعالجه

(١) المجموعة الكاملة ص٢٢١ .

(٢) ذاته ص ٢٣٠. ولهذا نظائر في ص٢٥٩، ٢٦٠ ، ص٢٨٧ ،٢٩٠ ،ص ٣١٦ ،٣٢٥ ،٣٣٦ ... إلي آخره .

ولا تتجاوزه إلي سواه [١]. ولذلك يقول صلاح لبكي عن شعر الأمير:" كل قصيدة من القصائد وحدة قائمة بذاتها مستقلة، لا تشتمل إلا علي موضوع واحد، من عتاب أو ذكري أو ندم أو حنين [٢] ومما بدالي – بعد ريث وأناة – أنه غالباً ما ينهي الموضوع الذي تعالجه القصيدة ببيت – أو أكثر – يشعر معه المتلقي أن القصيدة قد اختتمت فلا يترقب شيئاً آخر بعد ذلك؛ لأنه لم يعد في نفسه تشوق إلي ما وراءه. ودلائل ذلك من الوضوح بمكان. ألحظها في نهاية قصيدته " نعمة الحب [٣]:

الهوىٰ غايتي وأنت حبيبي ** وسأرقي إلي لقاك الغماما

ونهاية قصيدته " صناجة العرب [٤]:

من الجزيرة أهديها مغلغلة ** إلي الكنانة في عيدها الذهبي

أودعتها كل أشواقي ومدخري ** من العواطف والإخلاص والأدب

كأنها من بنات النيل غانية ** تختال بين مغاني الأنس والطرب

من شاعر عربي كل غايته ** أن يظفر العرب بالآمال والغلب

وما قصدت بها تبرا ولا ذهبا ** فالحب أرفع من تبر ومن ذهب

(١) مثل قصيدته " أطيلي الوقوف " بالمجموعة الكاملة ص ٧٠ وما بعدها و " لوعة " ص ٧٨ وما بعدها. و " صبر ينفد " ص ٩٤ وما يليها. و " أمل المحروم " ص ٩٧ وما بعدها. و " إني علي الحب" ص ٣٢٧ وما بعدها. إلي آخره.

(٢) انظر مقاله " هذا المحروم " في صدر المجموعة الكاملة ص ١٠.

(٣) المجموعة الكاملة ص ٢٨٣.

(٤) ذاته ص ١٣٧ وما بعدها.

ونهاية قصيدة " أتحراك [١]، و " أخاف من الظلام [٢] و " المشارف الخضر " [٣] و " منار الهدي " [٤] و " أقول "[٥]..... إلي آخره.

كما لاحظت أنه من الممكن – في بعض قصائده – تقديم بعض الأبيات أو تأخيرها أو بترها، دون أن يؤثر ذلك في القصيدة أو يحدث في موضوعها خللاً. ومعني هذا أن قصائده لا يجمع بينها ارتباط عضوي، لأن القصيدة عنده – وكما تبين لي – مجموعة من الأفكار تلتف حول موضوع واحد، وتعبر عن انفعال الشاعر، وتعكس مشاعره. ولئن كان هناك بعض قصائد يمزج فيها بين الغزل والحكمة، أو بين الغزل ووصف الطبيعة إن ذلك قليل لا ينفي ما قررته.

ومفاد هذا كله أنه انصرف إلي الوحدة الموضوعية، ولم يلتزم في قصائده الوحدة العضوية. وما أريد أن أخوض في هذه المصطلحات: تحريراً ومناقشة؛ فقد أولاها النقد القديم والحديث اهتماماً كبيراً، ثم إن هذا الخوض ليس من شأن هذه الدراسة ولا من أهدافها، وإنما يعنيني أن أبين أن ما صنعه الشاعر ليس شيئاً عجبا، وليس مدعاة للانتقاص. فطبيعة الشعر الغنائي تصدر عن الوجدان والشعور الدافق، وتصيخ إلي أصداء النفس وخوالج الحس. في حين أن الوحدة العضوية تتطلب هندسة فكرية وتقتضي تخطيطاً منطقياً وهذان إنما يتسقان مع فني القصة والمسرحية. وفي الحق أن

(١) ذاته ص ٤٤٩.

(٢) ذاته ص ٤٤٠

(٣) ذاته ص ٤٣٧.

(٤) ذاته ص ٤٢٧.

(٥) ذاته ص ٤١٧.

المرحوم الدكتور " بدوي طبانة " كتب حول هـذه القضـية كلامـاً رائعـاً أري مـن تتمـة الفائدة أن أقدمه. يقول: "..... المتتبع لكلام " أرسطو" في كتاب " الشـعر " يلاحـظ أن أرسطو لم يحاول تطبيق مقياس الوحدة العضوية علي الشعر الغنائي. بـل إن هـذا الشـعر الغنائي لم تقم له دراسة في كتاب الشعر كما وصل إلينا. ومن هنا كان علينا أن نتوقف، و أن ننظر نظرة متأنية عندما نحاول تطبيـق ذلـك المقيـاس عـلي الشـعر الغنـائي في أدبنـا العربي قديمه وحديثه علي السواء،إذا كان لابد من الحرص علي تطبيق مـا أراده أرسـطو من المقاييس بعد ذلك الزمن السحيق الذي يفصل بيننا وبينه، لا لشيء مما تقتضيه طبيعة الاختلاف بين الفنون الإنسانية فحسب، ولكن لأن " أرسطو " لم يحاول تطبيقه عـلي مـا عرف من الشعر الغنائي في الأدب اليوناني، فـما بالنـا نريـد مـا لم يـرده صـاحب القـول بالوحدة العضوية ؟.... طبيعة هذا الشعر الغنائي لا يمكن أن تخضع لما يخضع له الشـعر المسرحي أو الشعر الملحمي من المقاييس – ولا سيما مقياس الوحدة – لأن لكل لون من هذه الألوان طبيعته وخصائصه التي تميـزه مـن غـيره. و إذا كـان هنالـك مجـال لتطبيـق مقياس الوحدة علي الشعر العربي فإن هذا المقياس يجد مجالـه الطبيعـي في التطبيـق عـلي الشعر المسرحي، الذي تكـون تلـك الوحـدة العضـوية إحـدىٰ خصائصـه، كـما طبقـت مقاييس أرسطو – ومقياس الوحـدة بالـذات – عـلي الأدب المسرـحي في سـائر الآداب الإنسانية "[1].

(١) قضايا النقد الأدبي. د. بدوي طبانة ص ١٠٤ وما بعدها دار المريخ للنشر ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤م.

العاطفة

وهي " الحالة التي تتشبع فيها نفس الأديب والشاعر بموضوع أو فكرة أو مشاهدة، وتؤثر فيه تأثيراً قويا يدفعه إلي التعبير عن مشاعره والإعراب عما يجول بخلده "[١] ولقيمتها التي تحتلها كانت عند بعض الدارسين " أهم أركان الشعر[٢] وعند بعض النقاد " أهم عناصر الأدب.[٣] ومهما يكن من أمر فـ " ليس للعاطفة قيمة عظمي في ميزان النقد إلا إذا كانت صادقة بأن يكون الأثر الأدبي ثمرة لانفعال صحيح غير زائف، وكانت قوية رائعة في ثوبها الثوري الحاد أو الهادئ الرزين، وكانت ثابتة مستمرة شائعة في النص كله، وكانت – أخيراُ – سامية[٤].

والحق أن العاطفة هي التي تنفث في القصيدة أو في التجربة الشعرية روحاً أثيريا دافئاً، يثير مشاعر المتلقي، ويهز وجدانه، ويحفزه إلي أن يشارك الشاعر أحاسيسه وانفعالاته. أو قل: يجعله هذا الروح يعيش تلك الخواطر التي تحتدم بين أعماقه ويعجز عن التعبير عنها، وإذا افتقدت قصيدة الشاعر هذا العنصر الأدبي المهم، أو طغي فيها الفكر والعقل علي الوجدان، هبطت منزلتها، وغدت جافة مستبردة، إلي منظومات

(١) دراسات في النقد العربي الحديث ومذاهبه – محمد عبد المنعم خفاجي. الحلقة الثانية ص ٣٤ دار الطباعة المحمدية دون تاريخ.

(٢) العامل الديني في الشعر المصري الحديث من ثورة ١٩١٩م إلي ثورة ١٩٥٢ م – د. سعد الدين الجيزاوي ص ٥٤٢ المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ١٩٦٤م.

(٣) أصول النقد الأدبي تأليف أحمد الشايب ص ٣١- وص٣ الطبعة التاسعة ١٩٨٥م. مكتبة النهضة المصرية – القاهرة.

(٤) دراسات في النقد العربي الحديث ومذاهبه ص ٣٤.

العلوم ونظرياتها أقرب منها إلي رفافية الشعر ووهجه. ومن ثم فالدارس الأدبي الواعي يمكنه – لو لم يغفل هذا الركن في دراسته – أن يميز الأديب من المتأدب، والناظم من الشاعر.

****

وبعد هذه الوجازة العجلي التي وقفت من خلالها علي مفهوم العاطفة ومقاييسها من الصدق والقوة والسمو... إلخ وعلي قيمتها الفنية في التجربة الشعرية يقفز إلي ذهني هذا السؤال: هل كان الشاعر الأمير " عبد الله الفيصل " يحظي بتلك الحالة التي تتشبع فيها نفس الأديب والشاعر بموضوع أو فكرة أو مشاهدة، وتؤثر فيه تأثيراً قوياً يدفعه إلي التعبير عن مشاعره، والإبانة عما يجول بخلده ؟ وإذا كانت الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب فما مدي ما حققه من مقاييس العاطفة تلك التي تقدم تبيانها ؟ الحق أن الإجابة عن هذين السؤالين تطلعنا علي السمات الشعورية التي اتسم بها شعره. ويمكنني – علي هدي من نظراتي المستأنية والمتكررة في شعره – أن أقول: أجل، كان الأمير يحظي بتلك الحالة التي تتشبع فيها نفس الأديب والشاعر بموضوع أو فكرة أو مشاهدة، وتؤثر فيه تأثيراً قوياً يدفعه إلي التعبير عن مشاعره والإبانة عما يجول بخلده. فشعره الوطني يترجم عن عاطفة وطنية وفية صادقة في حب الوطن الصغير والكبير، ومخلصة في الدفاع عن حماهما والذود عن حرماتهما، وداعية إلي الجهاد والتضحية وإلي بذل كل ما يستطاع لإعزازهما والارتفاع بشأنهما إلي أسمي مكان. نعم ويتصل بهذا شعره في الإشادة بأبطال المسلمين والعرب فهو وليد تشبع ذاته بروح الدين وتعاليمه، ومنبعث عن عاطفة دينية مكينة وإيمان عميق راسخ. والذي لاحظته أن عاطفته الوطنية

امتزجت بشقيقتها الإسلامية. ولا عجب، فهو إنما يعالج في وطنياته قضايا كبري في شعوب يؤلف بينها لواء الإسلام.

وقصائده الغزلية – وما أكثرها من شعره – تصوير حي نابض بالحب والجمال والسمو بهما – في الأغلب – فوق نوازع الجسد الترابية:

أشدو بذكرك والغرام يسوقني ** لنهاية في الحب وهي بعيد
فاحفظ ودادي إنه أغلي الذي ** يفني فؤاد دونه ويبيد [1]

****

سل نجوم الليل عن شاعرها ** إن جفا عينيك في الليل الرقاد
وتلفت حيثما شئت تجد ** وهج أنفاسي مشبوب السهاد
واستمعني في حناياك صدي ** لغرام زاده البعد اتقاد
وتبسط في مناجاتي فما ** أعذب النجوى إذا رق الوداد [2]

وقصائده في الوصف – عامة – صورة شفافة للخلجات التي شعر بها وهو يملأ صدره من مباهج الطبيعة، سواء أكانت في بلاده أم خارجها. هذا، وهناك قصائد اقتصر فيها علي تسجيل الحدث أو عرضه دون أن يتجاوز ذلك إلي الإبانة عن مدي انفعاله به، أو تصوير أحاسيسه وخواطره تجاهه. وذلك ملحوظ في قصائده:" كان حلماً [3] و "

(١) المجموعة الكاملة ص١٠٨.

(٢) ذاته ص ٣٦٩.

(٣) ذاته ص ٨٣ وما بعدها.

كيف أنساك يا أبي "؟ [١] و نشيد الفداء[٢] و حديث زهرتين [٣] و " كبرياء " [٤] و " لمن تغنين "[٥]. وليس يعني هذا أنه في تلك القصائد وأمثالها يتكلف عاطفة لم يحس بها، إذ من الممكن أن يتأثر الأديب وينفعل بموضوع ما، ويقف عند حد تصويره دون أن يتجاوز ذلك إلي إسماع المتلقي صوت نفسه تجاه هذا الموضوع. ومن الممكن كذلك أن يجد الشاعر موضوعه الذي ينفعل به، ولكن عقله يكون دائماً معه، ويكون له الحضور والغلبة في أثناء عملية النظم، وأياً كان الأمر فمثل هذه القصائد التي تنفلت من اللسان ولا تصدر عن الضلوع قليل في شعره، فلا ينقض ما سبق أن أثبته في محاولتي الإجابة عن السؤال المطروح سلفاً.

ومن خلال ما تقدم أستطيع أن أقول " إن القصيدة عند الفيصل تنبثق – في الغالب – من صميم وجدانه، حين يهزه حدث ما، أو موقف ما، فينفعل به، وينصاع له، ويصوره معبراً عن خلجاته النفسية تجاهه في مواضع كثيرة، وغير معبر في أخري قليلة. ولعلنا واجدون – مما تقدم – عاطفة الشاعر قد ارتدت أثواباً عدة، منها الإسلامي، ومنها الوطني، ومنها المحب المعجب....إلخ. وما تنوعت هذه العواطف في شعر الرجل إلا لتنوع بواعثها ومثيراتها.

****

(١) ذاته ص ١٢٢ وما بعدها.

(٢) ذاته ص ١٤٥وما بعدها.

(٣) ذاته ص ١٩٨.

(٤) ذاته ص ٢٨٤وما بعدها.

(٥) ذاته ص ٤١٨وما بعدها.

وأما عن إجابة السؤال الثاني المتعلق بمدي ما حققه في شعره من صدق العاطفة وقوتها وسموها...إلي آخره ففي الحق أنه لم يكن يتصيد الشعر أو يصطنعه اصطناعاً، بل كان – في الغالب – ينطلق علي سجيته بوجدان متقد متدفق، وهذا – فيما أحسب – جعل شعره صادق العاطفة. ولله دره حين يقول عنه:

هو فيض من المشاعر في الصد ** ق وحرب علي النفاق البليد [1]

ولعل حاسة التدين التي فطر عليها ونشأ من أبين الدلائل علي صدق عاطفته في غير فن من فنون الشعر التي عرض لها. فنحن نراه في بعض قصيده الديني يترنم بأدعية وابتهالات يعبر فيها عن ذات نفسه بإزاء عظمة ربه سبحانه وتشهد لذلك قصيدته " إلي الله ". ونراه يستحث الشباب في شعره الوطني أن يعودوا إلي ماضي أمجادهم، ويبصرهم بالمثل العليا، مثل البطولة العربية الإسلامية التي لم تنلها يد البلىٰ. ويدعو إلي الوحدة، وإلي الوقوف بجانب الجريحة " فلسطين " وإلي بذل النفس والنفيس من أجلها، استجابة لنداء العاطفة الإسلامية. كما نراه يذيع مآثر شخصيات ناضلت في تثبيت كيان بلادها ودعمت استقلالها وحريتها، وكان لها غيرة إسلامية وجهود بناءة في خدمة شعوبها، وفي خدمة الإسلام وإحياء معالمه وآثاره. يذيع الشاعر تلك المناقب لا في حياة تلك الشخصيات فحسب بل – أيضا – بعد نزولها من قطار الحياة ووداعها الدنيا. كما نجده في وصف الطبيعة يقرأ الكون ويتملي محاسنه، تفكرًا في بديع صنع الله. ونراه في غزله يتغني بعفته وطهره وتدينه...إلي غير ذلك مما بان من التناولات السابقة وأغلبه – بلا ريب – يبرهن علي صدق عاطفته. ولذلك صح قول بعض الدارسين:"محروم شاعر

(١) ذاته ص ٤١٢.

وهب حساً قويا وخيالاً جامحًا، فسلك طريق الشعر كما خطته له إمكانات إنسانية مزجت فيه، فجاء شعره شعرًا من الحياة تغمره عاطفة صادقة " (١)

وأما عن قوة عاطفته، ففي الحق أنها اتسمت- في أغلب شعره- بالهدوء، اللهم إلا في شعره الوطني، حيث نراه يشدنا شدًا إليه بانتقائه ألفاظاً تنقل إلينا حماسه وثورته، وتحرك فينا نخوة السخط والغضب ضد الظلم والظالمين، فلا نحس من وراء ذلك إلا بصدق شعوره، ولا يتبدئ لنا منه إلا قوة عاطفته. علي أن قوة العاطفة ليست وقفاً علي الحدة والثورة والعنف، فقد تكون تلك القوة في قوة الشعور؛ ولذلك نري الشاعر يسمو فوق الأحداث، فلا يبكي ولا يقف عند حد التنديد بالغاصبين، فإن الكلام وحده لن يجدي، وإنما يتولي الدعوة إلي مزايا النهوض والتقدم العلمي، فهو طريق الوعي واليقظة وترك الخمول ومواجهة الأمر الواقع بقدرة ووحدة ، مذكراً أبناء وطنه الصغير والكبير معاً بأن هذه المبادئ الأساسية كانت سبباً في نهوض الأعداء. وبهذا الشعور القوي المهيمن علي روح الشاعر يشارك الشعوب العربية مآسيها، فيقف بشعوره مع شعب العراق، ونراه – قبلاً – أمام نكبة فلسطين يرتفع فوق النوازل؛ إذ يبعث في نفوس أبناء الأمة العربية روح الإصرار والصمود، واثقاً في ربه ثم في قوتهم الغلابة بعودتها علي مسرح الوجود.

وإذا ذهبت أتتبع عاطفته في شعره وجدت – إلي ما مضي – عاطفة سامية محبة. أما من حيث كونها سامية فلأن قارئ شعره لا يري فيه سخافة أو لغوا، ولا يري فيه استهتاراً بمبدأ أو مثل. فهو لم يقل الشعر تسلية أو لقضاء وقت الفراغ، ولم يتخذ منه

(١) أصداء الصحراء. هند سلامة ص ٦٣. دار الشمالي للطباعة – حريصا ، لبنان ١٩٥٩م

حرفة، ولكنه آمن به رسالة سامية تعبر عن نفسيته، وتقود الفرد والمجتمع إلي الحق والخير الجمال. يقول صلاح لبكي:" حسبك من " محروم " أنه إنسان كأي إنسان، يتألم ويشقي، ويحب ويتلهف، ويشارك الناس في أفراحهم وأتراحهم وأوجاعهم، وأنه – إلي ذلك – يحاول – في منتهي الإخلاص – أن يرفع للأدب راية، وأنه – مثلي ومثلك ومثل كل إنسان – خليق بهذه التسمية، خادم من خدام الحق والخير والجمال [1] . وأما من حيث كونها محبة فلأن من يدقق النظر في شعره يشعر بأن عاطفة الحب تشغل في قلبه مواقع التجلة والكرامة:

فأنا الشاعر الذي مجد الحسـ ** ن بشعر منور كالضياء [2]

كل ما فات يرتجي ** لو سلمنا من الزلل

فلنعد ولتعد بنا ** سنة الحب في الأول[3]

لقد نفث الأمير في الحب نفثات رائعة حلق في كثير منها بعيداً عن الدنيات، فالحب:

هو عهد القلوب صحت وفاء ** وأبت للغرام غدر الذئاب

عهد قلبين مؤمنين بأن الـ ** حب أسمي من خدعة وارتياب [4]

ومع شعوره في حبه بالحرمان لم يثر علي الحياة، ولم يمطر العالمين بسيل جارف من التبرم والسخط؛ فجاء فنه الغزلي "صدي طبيعيا لأغوار نفس يسببها حب الجمال.. وما

(١) عن مقاله في صدر المجموعة الكاملة ص ٨.

(٢) المجموعة الكاملة ص ٢٦١.

(٣) ذاته ص ٧٣.

(٤) ذاته ص ١٩٦.

يسميه الأمير حرمانا هو ما يسميه علماء النفس كبتا. وهذا الحرمان أو الكبت يرهف حساسية الشعراء" [1]. ومن أجل ذلك أيضا جاء فنه الغزلي "خالياً من الحالات المرضية والرؤىٰ المحمومة، والعنف. ومتي قلنا: إن هذا الشعر فيض من الذات فقد قلنا: إن الفن فيه لا يقوم علي الوصف الخارجي. إننا لا نقع في هذا الشعر علي شيء من المحسوسات الملموسات، فهو ليس تغنياً بحسن معين، ولا تشوقاً إلي شكل. بل تعبير عن عاطفة أثارها حسن لم يوصف لنا وشكل لم يرسم. وإذا ضجت الشهوة أحياناً فإنما تقف عند حد الإشارة إلي اللواعج المحمومة ليس إلا. ومحروم مطمئن إلي عقيدة راسخة، ومرتاح إلي إيمان عميق لا يرقي إليه شك ولا تضطرب معه نفس. لا ثورة علي قدر ولا تجديف ولا غضب. إذا حل المقدور وناء بكلكله استجار منه به، ولا ذ بالرضا مستعيضاً بالذكري مما أضاع من أمل وفقد من حب ورغد وهناء:

يا حبيبي أين أيام خوال ** يوم كنا بين سمار الليالي

ننهل الحب ونفني في الجمال ** وعلي النيل مواعيد الوصال

لم يدم لي غير ذكري في خيالي

فهو كما تري يقرر هذا الواقع شاكياً كاسف البال ولا شيء بعد.وفيم الثورة وعلام ؟ وهل تبدل الثورة علي القدر شيئاً من ثورات القدر ؟ هل تستطيع أن تمحو ما خطته أصابعه أو أن تستحيي وتعيد ما محته. فلا ثورة إذن ولا صخب ولا ضجيج. بل كآبة تشيع حتي ليضيق بها الجو من غير ما دموع ولا عويل ولا نحيب. ولكن ما أكثر ما تقع عيناك علي الدم تصطبغ به الحروف متقطراً من صميم القلب" [2].

(١) جدد وقدماء ص ٣١١.

(٢) انظر: مقالة " هذا المحروم " للأديب صلاح لبكي في صدر المجموعة الكاملة ص ٩ وما بعدها.

آلام الفيصل – إذاً – ومحنه الوجدانية – إذا جاز التعبير – لم تجعله يخاصم الحياة:

ولم أذع سر الهـــــوى لا مـــــرئ ** بـــل صـــنته في قلبـــي الموصـــد

حتـى اكتـــوي صـــدري بحرمانـــه ** مســـهد الإحســـاس لم يهجـــد [1]

وهذا يجلي شدة صلته بها حتي في أحلك ظروفه النفسية وأحرجها.

(١) المجموعة الكاملة ص ٢٢٤.

الألفاظ والأساليب

للكلمة مفعولها العميق في إثارة العقول والقلوب، ثم التوجيه إلى الراشد أو الضائع، والأعلى أو الأدنى من مسالك الحياة. والمفردات والتراكيب هي الدعائم التي ينهض بها بناء الفن الشعري.

-١-

ومفردات الفيصل تميل إلى الوضوح والبساطة، وإلى الرقة والعذوبة، متلائمة مع مواقفه العاطفية وموضوعاته الرقيقة التي أخذ نفسه بتناولها. وقد تجلى ذلك على أتمه في نماذج كثيرة[1] منها قصيدته (سمراء):

سمراء يا حلم الطفولة ** يا منية النفس العليله
كيف الوصول إلى حما ** ك وليس لي في الأمر حيله
إن كان في ذلي رضا ** ك فهذه روحي ذ ليله
ووسيلتي قلب به ** مثواك إن عزت وسيله
فلترحمي خفقانه ** لك واسمعي فيه عويله
قلب رعاك وما ارتضي ** في حبه أبداً بديله
أسعدته زمنا ورو ** ي وصلك الشافي غليله
ما بال قلبك ضل عنـ ** ـه فما اهتدي يوماً سبيله

(١) انظر المجموعة الكاملة ص٢١٦، وما يليها. وص ٣٠٢ وما بعدها وص٣٠٩ وما يليها وص ٢٣٦ وما بعدها. وص ٤١٦ وما بعدها وص ٤٤١ وما يليها.. إلخ .

وســـــــبيلك الـــــــذكري إذا ** مـــــا داعبتـــــك رؤىٰ جميلـــــه

في ليلـــــة نســـــج الغـــــرا ** م طيوفهـــــا بيـــــد نحيلـــــه

ســـــمراء يـــــا أمـــــل الفـــــؤا ** د وحلمـــــه منـــــذ الطفولـــــه [1]

فواضح ألا غموض في كلمات القصيدة ولا إغراب. ولم يتكلفه مع استطاعته البساطة ؟ "ولعل في البساطة كلمة الفن الأخيرة . هذه البساطة يصل إليها محروم دفعة واحدة.فكأنه مطبوع عليها لم يقتبسها اقتباساً ولم يقلد فيها أحداً كل فنه أنه أرخي لقلبه العنان وبسط ذاته واجداً في البث والشكوىٰ راحةً وعزاءً، راحة من يتخلي عن عبء ومن يشرك غيره في مشاطرته حمل أثقاله".[2]

أما الأسلوب الذي اتبعه في التعبير عن مشاعره فهو أسلوب سهل سائغ ينساب إلي النفس بيسر وعذوبة. وآية ذلك أننا إذ نقرأ القصيدة نتفهم ما فيها ونتذوقها للوهلة الأولي ويستهوينا فيها هذا التدفق واليسر. ومرد ذلك إلي أن الشاعر ترجم عن قلبه الحائر وترك نفسه الشاعرة علي سجيتها دون أن يبالي كثيراً بالتصنع في تركيبه والتنميق في عباراته، فالتصنع والزخرفة من عمل العقل والانسياب من شيات العاطفة.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الموضع أن اتسام ألفاظ الشاعر- هنا في هذه القصيدة وهنالك علي مستوي شعره في ديوانه - بوضوح معانيها لا ينزل به إلي درجة أدني، أو يعد ضعفاً، أو يغض من قيمته. نعم، ليس هذا الاتسام عيباً، إنما العيب في الغموض، "لأن الكلام مجعول للإبانة عن الأغراض التي في النفوس. وعلي هذا فالشاعر عليه أن

(١) المجموعة الكاملة ص٤٧ وما بعدها.

(٢) من مقال للأستاذ / صلاح لبكي في صدر المجموعة الكاملة ص ٩.

يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلي الدلالة علي المراد، وأوضح في الإبانة عن المعني المطلوب".[١]

-٢-

وهو يعمد إلي بعض الصور البيانية يستعين بها علي توضيح أفكاره، ونقل أحاسيسه إلي الآخرين، فيلجا إلي التشبيه والاستعارة والكناية. فمن أمثلة التشبيه:قوله [٢] لحبيبه:

كم أنت والله تحسد ** باللحظ والروح والقد

عيناك عينا مهاة ** والشعر كالليل أسود

والثغر عقد لآل ** يا ليتني فيه أنضد

ولملك المغرب[٣]

راسخ كالطود.. عال كالذري ** واسع الخطوة سامي المذهب

ولشباب العصر[٤]:

ويل هذا الجيل من تاريخه ** ويله من مشيه المضطرب

هو في وهم الحضارات مشي ** كفراش في مهب اللهب

ومن أمثلة (الاستعارة) قوله[٥]:

(١) الشعر: غاياته ووسائطه. إبراهيم عبد القادر المازني ص٢٧. مطبعة البسفور. القاهرة ١٩١٥ م

(٢) المجموعة الكاملة ص٣٢.

(٣) ذاته ص ١٧١.

(٤) ذاته ص ١٣٠ وما بعدها.

(٥) ذاته ص ٣٨٤.

سـألتك لا تلتجـئ للكـذاب ** فحسـبي وحسـبك مـا نرهـب
جفـاء ينـام عـلي قسـوة ** ويصـحو عـلي نـدم يلهـب

وقوله[1]:

هجـع الليـل في فـراش الغـدايا ** وعـلي صـادحات لحـن طـروب
ومشي الفجـر في مطارفـه الزهـ ** ـر وأنفاسـه نـوافح طيـب
يـوقظ الفتنـة النـؤوم ويزجـي ** نفحـات مـن الأريـج الرطيـب
صـفق القلـب يـوم عـدت حبيبـي ** بعـد طـول النـوي وليـل المغيـب

وقوله[2]

ذكريني بـالأمس، بالطيـب، بـالآ ** ه، بأنغـام قلبـي الراقصـات
حـين كانـت شـفاهنا تتهـاوي ** ثمـلات محمومـة القـبلات
يـوم نـام الوجـود عنـا، وكنـا ** وحـدنا طـائرين بالصـبوات

ومن أمثلة الكناية قوله[3]:

وكـم طافـت عـلي ظـلال شـك ** أقضـت مضـجعي واسـتعبدتني

وقوله[4]:

(١) ذا ته ص ٢٠٥- ٢٠٦.

(٢) ذاته ص ٣٤٤.

(٣) ذاته ص ٤٥.

(٤) ذاته ص ٣٧٤.

واضـــحكي مـــثلما عهـــدتك إني ** مـا حببـت العبـوس طـول حيـاتي

وقوله[1] في أبيه بعد عبوره إلي الشاطئ الآخر:

أي خطب مروع كنت أخشا ** ه فأبلي عزمي وفل سلاحي

وقوله[2] متحدثاً عن أوضاع العصر الذي نحياه:

ضاق عن آهة الجزوع من الإثـ ** م وما ضاق عن أثيم الجماح

خرس العندليب فيه، وراحت ** تتغني غربانه في البطاح

وقوله[3]:

يـا حبيبـي قيثـارتي لفهـا الصمـــ ** ت، وباتت جسماً بغير انفعال

والأغـاني التـي عهـدت صـداها ** زاهيـاً كـالربيع حـول الـتلال

أصـبحت آهـةً يرنحهـا الشـو ** ق إلي أمسـنا الوريـف الظـلال

يـوم كنـا نختـال في موكـب الحـب ** نـــدير الظهـــور للعـــذال

وواضح أن تشبيه عيني الحبيبة بعيني المهاة في الاتساع، وشعرها بالليل في السواد، وفمها بالعقد في الانتظام... إلي آخره. ثم الاستعارة المكنية في: جفاء ينام ويصحو.و: هجع الليل. و: مشي الفجر. و: صفق القلب. و: نام الوجود... والكناية عن القلق بقض المضجع. والانكسار بفل السلاح. وعدم الاكتراث بما يقول العذال بإدارة الظهور

(١) ذاته ص ١٢٢.

(٢) ذاته ص ١٤٩.

(٣) ذاته ص ٤٤٦.

لهم.. واضح أن تلك الصور البيانية وسواها مما تحويه هذه الأبيات يشيع أغلبها في دواوين الشعراء العرب القدامى، كما أن الألفاظ التي وقع الشاعر عليها تفصح عن ذلك الاقتفاء مما يشير إلي انتفاع الشاعر بما قرأ في الشعر العربي القديم. علي أن ثمة صوراً بيانية أخري يبدو فيها تأثر الشاعر بالبيئة الخاصة (السعودية) التي استقي منها خلجات أفكاره، وتنفس فيها مناعم الهوى وأريج الحب. وبالبيئة العامة (الوطن العربي) أو- بالأحرى - بعض بلاده التي قدر له أن يزورها كمصر ولبنان اللتين شهدتا فصولاً من الذكري، وفجرتا طاقاته الشعرية. وقد سلف رسمه لوحات فنية عامرة بالحيوية والنشاط والحركة في حديثه عن مصر والأردن والمغرب والكويت والعراق... وإضفاؤه الإنسانية علي ما هو غير إنسان، وجعله يشعر ويتحرك ويفكر. وهذا ما يعرف بـ " التشخيص". وقد أشار الدكتور طه حسين إلي دور هذين النبعين في ديوان (وحي الحرمان) حين قال: "فالشاعر متأثر بشيئين واضحين كل الوضوح في ديوانه كله. أحدهما طبعه العربي الخالص الذي يأتيه من نسبه ومن وطنه الذي نشأ فيه وهو نجد والذي يعيش فيه الحجاز.

والآخر هذه الحواضر العربية التي يلم بها بعد حين وحين والتي ترسل إليه أدبها السهل اليسير في كل وقت. فيقرؤه في يسر وإسماح لا يتاحان له حين يقرأ شعر أسلافه من القدماء النجديين والحجازيين" (١)

وبعد، فالشاعر لم يسرف في استخدام أنواع الخيال هذه، لأنه - كما بان لي من معادوة النظر في شعره - لم يكن من هؤلاء الشعراء الدين يبدئون ويعيدون في اختراع الصور،

(١) انظر: من أدبنا المعاصر د. طه حسين ص ١٢٨ الطبعة الثانية – مارس١٩٥٩م.

ويبعدون في التخيل إبعاداً يصل بهم إلي الغيم والضبابية، ولذا جاء خياله مستساغاً واضحاً قريب المأخذ. ومهما يكن من أمر، فهو لم يعتمد - في توضيح معانيه وتصوير خواطره النفسية - علي ألوان الخيال فحسب، بل اعتمد - كذلك - علي وحي الألفاظ والتراكيب المستعملة علىٰ سبيل الحقيقة. ولعل من أبين الأمثلة علي ذلك قصيدته: (أطيلي الوقوف) التي قالها في أثناء مرض ألم به. ومنها:

هو الداء يعبث في أضلعي ** إذا ما نعيت فلا تفزعي

ولا تبعثي صرخةً في الفضاء ** ولا ترسلي مدمع الموجع

فلا بالمدامع برء الجراح ** فخلي النواح ولا تجزعي

ولكن عليك بحفظ الوداد ** وصوني عهود الفتي الألمعي[1]

.... وهكذا تمضي كلمات القصيدة مصورة حقيقة الموقف العصيب الذي يحياه الشاعر تصويراً صادقاً مؤثراً قد لا ينهض بمثله مجاز أو تمثيل .

-٣-

وقد وقع في شعره بعض المحسنات البديعية كالطباق والجناس ورد العجز علي الصدر... فمن الطباق: إيجاباً وسلباً، قوله[2]:

الرؤىٰ حولي غامت ** بين شكي ويقيني

وقوله [3]:

(١) المجموعة الكاملة ص ٧٠.

(٢) ذاته ص ١٨٧.

(٣) ذاته ص ١٩٢.

هـــذا فـــؤادي فامتلـــك أمـــره ** واظلمـــه إن أحببـــت أو فاعـــدل

وقوله[1]:

أنـــا في حـــيرتي أمـــوت وأحيـــا ** كـــل يـــوم، وأدمعـــي لي شـــهود

وقوله [2]:

أقـــول وكيـــف لا يصـــغي الجبـــان ** أدان بـــــما يقـــــول ولا يـــــدان

وقوله[3]:

دنيـــاي نـــار مـــن الهجـــران محرقـــة ** إذا نأيـــت وروض حـــين ألقـــاك

وفي اجتماع الضدين (الشك واليقين - الظلم والعدل - الموت والحياة - الإدانة وعدمها) اكتمال الصورة وسمو المعني. وفي المثال الأخير طباق خفي بين (نار وروض). وبيان ذلك أن الضدية في الصورة متوهمة، وأن المطابقة باتت خفية لارتباط أحد الركنين بما يضاد الآخر ارتباط اللزوم. فالروض - وإن لم يكن مقابلاً للنار - يستلزم الجنة المضادة للنار. وهكذا ينم الطباق عن تأثير المحبوبة الساحر في عقل الشاعر وقلبه وعواطفه، كما يشف عن أن الحب لا يعرف السعادة الأبدية بدليل ما يعيشه ذوو النفوس الواهة والقلوب المفتونة من وصل وهجر، ووعد وإخلاف، وإقبال وإدبار، ونيل وحرمان. وكأن لذة الحب في هذه الأحوال المتناقضة. ولأمر كهذا كان قول ابن معمر:[4]

---

(١) ذاته ص ٣٣٤.

(٢) ذاته ص ٤١٦.

(٣) ذاته ص ٢٠.

(٤) شرح ديوان جميل بثينة. قدم له وعلق حواشيه سيف الدين الكاتب وآخر منشورات دار مكتبة الحياة بيروت / لبنان.

وإني لأرضي مـــن (بثينـــة) بالـــذي ** لـو ابصرـه الـواشي لقـرت بلابلـه
بـــ(لا) وبـــ(ألا أسـتطيع) وبـــ(المنـي) ** وبـ (الوعد) حتىٰ يسأم الوعد آمله
وبـــ(النظرة العجلىٰ)وبـــ(الحول)تنقضي ** أواخـــره لا نلتقـــي و أوائلـــه

ومن الجناس قول محروم [1]:

حـــالي بمعـــترك الحـــوادث حـــالي ** فـيم السـؤال ولات حـين سـؤال

وقوله[2]:

وفـا رقـت مغنـاك الـذي تعهدينـه ** وإن كان في معناك يا غادتي سعدي

وقوله[3]:

قـــــل لي: إلي أيـــــن المســـــير ** في ظلمـــــة الـــــدرب العســـــير !!

ولئن كان العرب مشغوفين بالغناء والإيقاع إن الفيصل واحـد مـنهم، وفـر لـه هـذا الصبغ البديعي ذاك المرام. فكلمات الجناس في هذه الأمثلـة تسـير عـلي اللسـان بـلا كـد وتعمل، وتحدث في نفس السامع تجاوباً نغمياً صادراً عن تماثل هذه الكلمات تمـاثلاً تاماً أو غير تام تطرب له الأذن وتهتزله أوتار القلوب .

ومن رد العجز علي الصدر قوله[4]:

فـــإن نســـيت وداداً كـــان يجمعنـــا ** علي العفاف فقلبي ليس ينساك

(١) المجموعة الكاملة ص ٧٤.

(٢) ذاته ص ٩١.

(٣) ذاته ص ٤٤١.

(٤) ذاته ص ٢٠.

وقوله[1] محيياً (الأردن) التي:

حـدثتنا القـرون عنهـا فكانـت ** خـبراً مـن عجائـب الأخبـار

وقوله عن عصرنا الشاهد[2] والشاهد في البيت الثاني:

ليـت هـذا الوجـود يمسي ـ ويغـدو ** واحـة للصـفاء والأفـراح

مـا تحـل الأخـلاق فيـه مبـاح ** وسـجال الآثـام غـير مبـاح

وقوله[3]:

ووسـيلتي قلـب بـه ** مثـواك إن عـزت وسـيله

ورد أعجاز الأبيات الآنفة – وماضاها ها من شعره –علي صدورها رابط من روابط التذكر. ولهذا يستطيع من يسمع المصراع الأول منها أن ينطق بالمصراع الثاني، أو بقافية البيت. ثم إن في هذا الرد تقريراً و بياناً وتدليلاً يتردد ويتكرر بتردد هذه الألفاظ وتكرارها. ومن ثم تبدو براعة الشاعر.

.... إلي غير ذلك من حلًي بديعية جاءت غير متكلفة وغير مقصودة، وجاءت كذلك تابعة للمعني، مزينة للأسلوب، مطلوبة للمقام، وهذا أمر يحمد للشاعر إذ استعمل هذه الألوان الاستعمال الصحيح، ذلك الاستعمال الذي يقول عنه الإمام عبد القاهر الجرجاني: "لا تجد تجنيساً مقبولاً ولا سجعاً حسناً، حتى يكون المعني هو الذي طلبه واستدعاه، ومن هنا كان أحلي تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه ما وقع

(١) ذاته ص ٤٢٩.

(٢) ذاته ص ١٥٠-١٥١.

(٣) ذاته ص ٤٧.

من غير قصد من المتكلم إلي اجتلا به" [١] ويقول: "إن المتكلم لم يقد المعني نحو التجنيس والسجع، بل يقوده المعني إليهما، حتىٰ لو رام تركهما إلي خلافهما مما لا تجنيس فيه ولا سجع لدخل من عقوق المعني".[٢]

-٤-

ومن الملامح الأسلوبية استعماله الأسلوب الإنشائي: نداء واستفهاماً، وأمراً... إلي آخره. وقد وقع النداء كثيراً في غزلياته. وخاصةً بأداة النداء (يا) منوهاً بذلك ببعد منزلة المنادي. وقد أكثر من إيراد لفظ (حبيبي) بعد هذه الأداة، كما أورد ألفاظاً أخري بعدها مثل: توأم الروح - أمل الفؤاد - ناعس الطرف - مبعث الطهر - ابنة الأحزان - أيها الغادر - أيها العائد الذي ألف المكر... وأمثال هذا. كما استعمل هذا الأسلوب في حفز همم أبناء وطنه (الصغير و الكبير) حاثاً لهم علي النهوض كما نهض غيرهم، ومنبها إلي ما يدبر لهم من مكايد. ولذلك اقترن عنده بالأمر كما في قوله[٣]:

فيا بني وطني بالعلم سعدكمو ** وليس في الجهل إلافادح المحن

فعرفوا الغرب ما للشرق من منن ** فيما مضي وأعيدوا أطيب المنن

ذودوا الغواة عن الأوطان وانتبذوا ** من فرق الشمل بالغايات و الفتن

وبالاستفهام كقوله [٤]:

---

(١)،(٢) أسرار البلاغة في علم البيان. تعليق و إيضاح الأستاذ / محمد عبد العزيز النجار، ص٢٠ وما بعدها باختصار وبعض تصرف. مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح.

(٣) ذاته ص ٦٧.

(٤) ذاته ص ١٦٢.

يـا جنـود الله يـا أسـد الحمـى ** أي طعـم لحيـاة في هـوان ؟

وقد أجاد في استعمال هذا الأسلوب في قوله [1]:

أفـديك يـا وطنـي إذا عـز الفـدا ** بـأعز مـا جـادت بـه نعـم الحيـاه

كـل الوجـود ومـا احتـواه إلي الفنـا ** إلا هـواك يظـل مرفوعـاً لـواه

يـا مهـد أجـدادي ** يـا كنـز أحفـادي

يا ظل أمجادي

منـك الشـجاعة والكـرم ** فيـك المـروءة والشـمم

تعلـو بعليـاك الهمـم ** ليظـل مرفـوع العلـم

****

أهـوي ثـراك الطـاهر الغـالي ** أهـوي سـماك ومجـدك العـالي

يـا فجـر أحلامـي وآمـالي ** تحيـا وتحلـو في مغانيـك الحيـاه

أهـوى الـذي يهـواك يـا وطنـي ** وأصـد مـن عـاداك يـا سـكني

يـا مهـد إسـلامي يـا وحـي إلهـامي ** يـا عـزي النـامي

يا موطن الفضل الندي

يا أصل كل السؤدد

ففي تكرار أداة النداء (يا) علي هذا النحو دلالة علي علـو قـدر المنـادي ومكانتـه في نفس الشاعر. وفي مجيء المنادي مضافاً إلي ضمير المتكلم إشارة إلي مدي قربه مـن نفسـه

(١) ذاته ص ١٤٥.

هو، وكلمات المنادي (مهد – كنز – ظل – فجر– وحي – عز – أصل) كلمات لطيفة مشرقة تومئ إلي ما يكتنف المنادي من شمائل ندية نضرت وجه الحياة من أحقاب موغلة في القدم ضاربة في أعماق التاريخ.

وأما الاستفهام فيأخذ مظاهر متنوعة من شعره، استجابة للحالة التي يعايشها وينفعل بها، ويعبر عن هواتف قلبه نحوها. فتارةً يحمل الاستفهام روح الإعجاب وطابع الاستيلاء علي الخواطر والشجون. كما في قوله:[1]

ورجعت للمحراب أنشد عزلتي ** لكن خيالك كان في محرابي

أين المفر ومنك ثم إليك ما ** أسعي ؟ وما بىٰ في غرامك ما بي

وقوله [2]:

حبيبي هل في الكون لولاك نفحة ** من العطر تسري في النسيم المحوم ؟

وهل في أحاسيس المحبين ومضة ** من الحب إلا خفق قلبي المتيم؟

ومن هذا الوادي قوله[3]: – وقد سحرته طبيعة بلاده–:

أين المصيف وأيام به سلفت ** وأين يا طير أحبابي وخلاني

أين الجبال التي تكسو أعاليها ** بمذهب من كثيف السحب هتان

وأين مني (شهار) ؟أين هضبته ** يا حبذا فيه أفراحي وأحزاني

(١) ذاته ص ١٠٤.

(٢) نفسه ص ٣١٠.

(٣) ذاته ص ٦١ وما يليها.

وأين مني (....) ؟ أين مجلسنا ؟ ** في ظلمة الليل أرعاها وترعاني

وأين - لا أين - ساعات مفضلة ** كانت - بما راح فيها - خير أزماني

لقد رسمت الأداة (أين) ملامح لموقف عاشه الشاعر، يتمثل في رحيله عن بلاده في بعض الأوقات، فإذ بعاطفته تحتدم فيها الأحاسيس الحارة، وإذ بالحنين إلي الذكريات يشده شداً إلي الأماكن والمعاهد التي تنفس فيها أحلامه ورغائبه. وتارةً يحمل الاستفهام روح الأسف والحيرة، كقوله بعد وفاة والده:

أي ذكري تعود لي بعد عام ** لم تزل فيه نازفات جراحي

أي يتم أذل كبر أنيني ** وأراني دجن المسا في صباحي

أي يوم ودعت فيه حبيبي ** ثم أسلمت مهجتي للنواح [1]

وطوراً ينم عن روح التعجب والدهشة، وذلك حين يبصر الإنسان يضل السبيل المستقيم، فيوجه تقدمه العلمي إلي الدمار والشر، لا إلي النفع والخير. فأي واقع هذا الذي توالت رزاياه ومصارعه ؟!:

أي عصر للنور، لا نور فيه ** غير ما بان من قراع السلاح؟

أي عصر هذا الذي يتباري ** فيه حز الظبي بطعن الرماح؟

أين من غينا غياهب جهل ** كن بالأمس مثل هوج الرياح؟

أين من عصرنا السلامة والأمـ ** ن وقد بات مصدر الأتراح[2]

(١) ذاته ص ١٢٢.

(٢) ذاته ص ١٤٨ وما بعدها.

وأما عن أسلوب الأمر فقد جاء بصيغة (فعل الأمر) كثيراً، ونادراً بصيغتي المضارع المقرون بلام الأمر، والمصدر النائب عن فعل الأمر.... ومن شواهده في شعر الغزل قوله[1]:

لكم سهرت الليالي ** وقلت: يا نجم فاشهد
بأنني منه مضني ** وأنني فيه أحسد
وكلما رمت وعداً ** بهجره يتوعد
وإن خلوت بنفسي ** وجدتها تتمرد
أقول: يا نفس صبرا ** فبابه غير موصد

وقوله[2]:

يا حبيبي؟ إن يكن طال جفانا ** وذوي في زهرة العمر صبانا
فلنعش يا حب في ذكري هوانا ** ولنقل عن حبنا كنا وكانا

وقوله[3]:

سل فؤادي: هل ضم غيرك يوماً ** سل ضلوعي، سل غيرتي، سل دروبي
سل سطوري إذا سجا الليل سارت ** لا عجات الهوى في دبيب
سل هزار الطيور عن شاعر الحب ** وشعر الحرمان والتعذيب

(١) ذاته ص ٣٣.

(٢) ذاته ص٥٠.

(٣) ذاته ص ٢٧٦ - ٢٧٧.

وإذا شـئت سـل فـؤادك عنـي ** فهـو أدري بقلبـي المغلـوب

وللحالة النفسية أثرها في انطلاق أفعال الأمر علي هذا النحو الذي تتجسد فيه نبضات الشاعر ودفقاته المتوالية دون إعاقة أو حائل. وليس يخفي بعد ذلك أن تفعيلات بحر (الخفيف) التي سرت في ثنايا هذه الأبيات تضافرت مع تلك الحالة في إحداث هذا الدفق وتلاحق الأجزاء وانسجام النغمات. ومن أمثلة هذا الأسلوب في شعره الوطني حثه الشعراء في بلاده أن:

أنـذروا قـادة الشرور بخسـ ** ر رغم ما اكتظ بينهم من سلاح

بلغـوهم أن السـلام هـو الحـق ** وأفيـاؤه ظـلال الفـلاح

حطمـوا عـدة الحـروب وذ ودوا ** عـن حماكم بـالعلم والإصلاح [1]

ومنه:

والعلـم رايـة كـل شعـ ** ب نـاهض سـامي الرغـاب

وعليـه فلنـبن الحيـا ** ة ولا نسـاوم في الثـواب

ولننطلـق في عزمنـا ** مثـل انطلاقـات الشـهاب [2]

وفي هذا الأسلوب ما فيه من إشاعة التفاؤل في النفوس وحفزها إلي الأمل الذي يجدد حياتها.

وقد يراد من الأمر الدعاء، كما في قوله[3]عن جده الملك (عبد العزيز):

---

(١) ذاته ص ١٥٢-١٥٣.

(٢) ذاته ص ٤٠- ٤١.

(٣) ذاته ص .

فليرحم الله قبراً ضمه جدثا ** مضمخاً بأريج الطيب منتشرا
وليحفظ الله شعباً لا يزال علي ** أعماله شاهداً بالخير معتبراً
ولينصر الله فهداً من صنائعه ** طابت غراساً جنينا بعدها الثمراً

وحين يثور علي القيد والظلم يسعفه هذا الأسلوب، إذ يحمل ما يحمل من روح الثورة والتمرد، والنذر الراعدة والدعاوي المقترنة بالبينة:

ياليوث الحرب في يوم الوغى ** ورجال الحلم إن حل السلام
أبشروا بالنصر من رب الورى ** ما بقيتم في التحام ووئام
ليس بعد اليوم وقت للكري ** قد صحونا لم يعد فينا نيام

****

إن درب النصر بالإيمان مشروط المصير
ومنال العز بالإقدام دان ويسير
فاحملوا من لهب الإيمان أقباساً تنير
واصنعوامن مصرع البغي تباشير السلام

****

أرض سيناء أشهدي إنا هنا ** نصبغ الأرض بموار الدماء
أيها التاريخ سجل إننا ** قد ثأرنا لعلا أمس حطيم[1]

(١) ذاته ص ١٦٠ وما يليها.

وواضح أنه مزج الخبر بالإنشاء، فحين يعلو تبرمه وسخطه يكون الإنشاء، وحين و يثبت ويهدأ يكون التقرير والخبر. ومثل هذا التلوين الأسلوبي الرائع - أو هكذا أري - أجدي في التصميم علي اجتياح العوائق والسدود، في اقتدار ورزانة وشموخ لا في اندفاع أهوج وحماس طائش، ليعود الحق السليب إلي ذويه. كما اعتمد في بناء أسلوبه علي النهي والتمني، لكن ما قدمت هو الأغلب.

وأما عن الأسلوب الخبري فهو كثير جداً في شعره وغالباً ما يستعمله مؤكداً بـ(إن) وخاصة في خواتيم القصائد، وبأداة التحقيق (قد) وبـ(الجملة الاسمية).. وأمثلة هذا مرت وتمر، الأمر الذي يدرك معه دارس فنه أنه كان بهذه الظاهرة حفياً.

-٥-

ومن الظواهر التعبيرية لديه: الاقتباس والتأثر بالقرآن العظيم ثم الشعر العربي في القديم والحديث، مما يؤكد تمسكه بتراثه الديني والأدبي، وإفادته منه، وحرصه علي أن يبني الجديد علي دعائم القديم وأسسه. وأورد – فيما يأتي – أهم المواضع التي ظهر فيها اقتباسه وتأثره وشغفه بالقرآن الكريم وتعابيره. فقوله:(١)

لا أوحش الله خيالي من الـ ** حب ولا تلك الليالي الأخر

حيث صباك البرعم الغض في ** أوراقه يشتاقه من عبر

يوحي إلي الدنيا أهازيجه ** مبتدعاً في كل قلب وتر

فيصدح الكون بأوصافه ** كم صور الله وكم ذا ابتكر

(١) المجموعة الكاملة ص٣٠-٣١ .

ناظر في شطره الثاني من بيته الأخير إلي قوله تعالي: (وصوركم فأحسن صوركم)[١] وقوله تعالي: (في أي صورة ما شاء ركبك)[٢] وقوله [٣]:

هدهـــدت حبـــي في المهـــاد ** ووأدتـــه قبـــل الفطـــام

ميعـــاده يـــوم المعـــاد ** يـــوم تعادبـــه العظـــام

ناظر في صياغة شطره الثاني من بيته الثاني إلي قولـه تعـالي" وضرب لنـا مـثلاً ونسي خلقه قال: من يحيي العظام وهي رميم"[٤].

الشاعر:

فطـــال وجـــدي وســـهدي ** ودب في العظـــم وهنـــي [٥]

- في القرآن الكريم علي لسان نبي الله(زكريا) عليه السلام: (إني وهن العظم مني)[٦].

الشاعر متحدثاً عن حبه:

كـــان حلـــماً نجتنيـــه أبـــداً ** كـــان حبـــاً جـــامح الشـــوق شـــهياً

فغـــدا و الـــريح تـــذروه هبـــا ** ذكريـــات مـــرة في أصـــغريا [٧]

(١) سورة غافر من الآية ٦٤.

(٢) سورة الانفطار آية ٨.

(٣) المجموعة الكاملة ص٣٥.

(٤) سورة يس آية ٧٨.

(٥) المجموعة الكاملة ص ٣٠٠.

(٦) سورة ريم من الآية ٤.

(٧) المجموعة الكاملة ص ٣٠٥.

في القرآن الكريم :" واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح".[١]

- **الشاعر:**

كوني كما شئت.. ورب القضاء ** لا يبخس الناس ولا يظلم [٢]

- في القرآن العظيم (.. ولا يظلم ربك أحدا)[٣].

- **الشاعر:**

سل سطوري إذا سجا الليل سارت ** لا عجات الهوي به في دبيب[٤]

في القرآن الكريم: (والليل إذا سجي).[٥]

- **الشاعر:**

نفثت في عقد منها وفي كرب ** موصولة لم تزل آياتها جددا [٦]

- في القرآن الكريم: (ومن شر النفاثات في العقد)[٧]

- **الشاعر:**

---

(١) سورة الكهف من الآية ٤٥.

(٢) المجموعة الكاملة ص ٢٠٣.

(٣) سورة الكهف من الآية ٤٩.

(٤) المجموعة الكاملة ص٢٧٦.

(٥) سورة الضحى الآية (٢).

(٦) المجموعة الكاملة ٤١٩.

(٧) سورة الفلق الآية (٤).

ورجعت للمحراب أنشد عزلتي ** لكن خيالك كان في محرابي

- في القرآن الكريم: " فإذا برق البصر. وخسف القمر. وجمع الشمس والقمر. يقول الإنسان يومئذ: أين المفر؟"(١)

- الشاعر مناجياً ربه ومتضرعاً وشاكراً نعماءه التي لا تحصي ولا تنفد :

وما دمعت عيناي إلا توسلاً ** وشكراً لنعماك التي لا تحدد

وجودي وما يحوي الوجود بأسره ** رذاذ عطاياك التي ليس تنفد (٢)

- في القرآن الكريم (وما بكم من نعمة فمن الله..)(٣)

وفي القرآن العظيم (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها).(٤) وفيه (ما عندكم ينفد وما عند الله باق).(٥)

- الشاعر:

وإن عميت عيون عن شموس ** مضيئات فقد يعمي العيان

وقد تعمي القلوب فليس يهدي ** بصائرها الحديث ولا البيان (٦)

(١) سورة القيامة الآيات من ٧إلي ١٠.

(٢) المجموعة الكاملة ١١٧.

(٣) سورة النحل من الآية ٥٣.

(٤) سورة إبراهيم من الآية ٣٤.

(٥) سورة النحل من الآية ٩٦.

(٦) المجموعة الكاملة ص٤١٧.

في القرآن الكريم: "أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور".[1]

..... وهكذا يسري المعني الإسلامي في شعر الفيصل، وتنساب كلمات الذكر الحكيم انسياباً هادئاً في بنائيته العبارة، فينضح ذلك علي أسلوبه المطبوع ولغته العذبة الصافية.

******

أما عن إفادته من الشعراء العرب القدامى والمحدثين، فالحق أنه قد اقتبس من أشعارهم وتأثرهم لفظاً أو موضوعاً أو هما معاً. فمن القدامى امرؤ القيس.

وقصيدة الأميرة حيرة[2] التي يقول فيها:

حارت الأشعار في ماذا نقول ** شرد الفكر وقد جد الرحيل

أزمعوا بيناً وشدوا رحلهم ** فتواري طيف أحلامي الجميل

وتهاوي الدمع في آثارهم ** وهو كالجمر علي الخد يسيل

إنها روحي أراها أدمعاً ** تملأ الأجفان والليل يطول

ترينا شاعرنا "بدوياً كأنه ينظر إلي امرئ القيس حين يصف رحيل الأحبة وما أثار هذا الرحيل في نفسه من حزن وأسًي وما انهل في آثار أحبائه من دمع غزير كأنه الجمر[3] " وأيضاً في هذه القصيدة عينها ينظر الأمير "إلي لامية المتنبي في مدح سيف الدولة والتي صدرها:

---

(١) سورة الحج الآية ٤٦.

(٢) المجموعة الكاملة ص٢٥.

(٣) من أدبنا المعاصر د. طه حسين ص١٣١.

ليـالي – بعـد الظـاعنين – شـكول ** طـوال، وليـل العاشـقين طويـل [1]

كما أن قول الأمير[2]:

ملأت بالشـعر دنيـا طالمـا هزجـت ** بـما تـردد مـن شـدوي ومـن كلمـي

فأصبح الشعر يروي للـوري مـثلاً ** عنـي، ليرشـفه مـن للغـرام ظمـي

هو إعادة صياغة لبيت أبي الطيب:

ومـا الـدهر إلا مـن رواة قلائـدي ** إذا قلت شعراً أصبح الـدهر منشـدا[3]

وقصيدته (يا ناعس الطرف)[4] : " لا تقل عاطفةً وجمالاً فنيا عن نونية ابن زيدون:

أضـحي التنـائي بـديلاً عـن تـدانينا ** ونـاب عـن طيـب لقيانـا تجافينـا

ففيها – أي في الأولى – تلك السهولة الدافقة وذاك السياق المستعجل".[5] وقصيدته (هل تذكرين).[6] فيها التفات إلى حجازية الشريف الرضي التي مطلعها:

---

(١) ذاته ص ١٢٩.

(٢) المجموعة الكاملة ص ٣٢٨.

(٣) شرح ديوان المتنبي. وضعه عبد الرحمن البرقوقي ص ٢٩٠ الجزء الثالث – الناشر دار الكتاب العربي. بيروت لبنان ١٤٠٠هـ – ١٩٨٠م)

(٤) المجموعة الكاملة ص ٩٩ وما يليها.

(٥) جدد وقدماء. مارون عبود ص٣١١، وطالع نونية ابن زيدون في: ديوان ابن زيدون ورسائله شرح وتعليق علي عبد العظيم ص ١٤١ دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة ١٩٨٠م

(٦) المجموعة الكاملة ص١٩.

ياظبيــة البــان ترعــي في خمائلــه ** ليهنك اليوم أن القلـب مرعـاك[1]

"ومقطوعة الشاعر الأمير أبي فراس الحمداني" [2] الوصية المشهورة لابنته:

أبنيتـــــــي لا تجزعـــــــي ** كـــــل الأنـــــام إلي ذهـــــاب

نـــــوحي عـــــلي بعـــــبرة ** مـــا بـــين ســـترك والحجـــاب

كانت بمفتاحها الأهـم (لا تجزعـي) وراء فكـرة قصـيدة الأمـير السـعودي (أطـيلي الوقوف) الوصية إلي محبوبه الحقيقي أو الشعري المفترض. وشتان بـين المـوصي إليهـا في النصين، فهو مكمن تجلِّي أميرنـا المعـاصر وسر تحليقـه دون أن يـتخلي عـن (لا تفزعـي) و (لا تجزعـي) وإن دعاهـا إلي تـرك النـواح والصرـاخ والبكـاء مراعـاةً للشرـيعة الإسلامية " :[3]

هـــو الـــداء يعبـــث في أضـــلعي ** إذا مـــا نعيـــت (فـــلا تفزعـــي)

ولا تبعثـــي صرخـــةً في الفضـــاء ** ولا ترســـلي مـــدمع الموجـــع

فـــلا بالمـــدامع بـــرء الجـــراح ** فخـــلي النـــواح (ولا تجزعـــي)[4]

****

(١) عبد الله الفيصل: دراسـة ومختـارات د. يوسـف بكـار ص ٢٥-٢٦ الطبعـة الأولي ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤ م الناشر دار المناهل – بيروت وانظر كـذلك: ديـوان الشرـيف الـرضي – المجلـد الثـاني ص١٠٧ دار صادر بيروت ١٩٩٤ م

(٢) ديوان أبي فراس – رواية أبي عبد الله الحسين بن خالويه ص٥٥ دار صادر بيروت دون تاريخ.

(٣) عبد الله الفيصل: دراسة ومختارات د. يوسف بكار ص ٢٨-٢٩.

(٤) المجموعة الكاملة ص٧٠ وما يليها.

أما عن الشعراء العرب المحدثين فلقد تأثر الأمير بنفر منهم، كشوقي وناجي وعلي طه وبعض شعراء الشام كأمين نخلة وبشارة الخورئ (الأخطل الصغير) وسعيد عقل... إلي آخره. وقصيدة الأمير (أين مني)؟[١] تتجاوب مع نونية شوقي[٢] التي يقول فيها:

يا نائح الطلح أشباه عوادينا ** نشجي لواديك أم نأسى لوادينا؟

ماذا تقص علينا غير أن يداً ** قصت جناحك جالت في حواشينا

رمي بنا البين أيكا غير سامرنا ** أخا الغريب، وظلاً غير نادينا

كل رمته النوى! ريش[٣] الفراق لنا ** سهماً، وسل عليك البين سكينا

ولئن كان كلاهما قد قال قصيدته وهو خارج بلده إن "البون بين بعد كليهما عن الوطن كبير، بعد الأمير السعودي سفري اختياري طوعي وبعد أمير الشعراء إجباري قسري " [٤] وأيضاً قصيدة الفيصل (يا شادي البان)[٥] تتجاوب مع نونية شوقي التي أومأت إليها. و"أطلال[٦]" إبراهيم ناجي التي وصفها صاحبها بأنها: قصة حب عاثر،

(١) ذاته ص ٦١ وما بعدها.

(٢) الشوقيات – الجزء الثاني ص٦٤٧.

(٣) ريش السهم: كسي ريشا للانطلاق بسرعة.

(٤) عبد الله الفيصل: دراسة ومختارات يوسف بكار ص٢٤.

(٥) المجموعة الكاملة ص١٠٦ وما بعدها. و: عبد الله الفيصل دراسة ومختارات ص ٢٥.

(٦) عبد الله الفيصل: دراسة ومختارات ص٣٠ وما بعدها. وطالع قصيدة الأطلال لناجي في (ديوانه ص ١٣٢ دار العودة – بيروت ١٩٩٩ م.

التقيا وتحابا، ثم انتهت القصة بأنها هي صارت أطلال جسد، وصار هو أطلال روح، كانت في (لا وعي) عبد الله الفيصل أو(وعيه)، وهو ينظم قصيدته (كنا وكان)[١] التي أهداها إلي الحبيب الأول والأخير. وقصيدته (كان حلماً)[٢] ففي حين جأر ناجي في مفتتح (ملحمته) كما سماها هو ناعياً ذاك الهوى:

يا فؤادي رحم الله الهوى ** كان صرحاً من خيال فهوي

كيف ذاك الحب أمسي خبراً ** وحديثاً من أحاديث الجوى ؟

يتساءل عبد الله الفيصل في (كنا وكان) متحسراً في مفارقة عجائبية عن موت الحب حين دبت فيه الحياة، مفارقة وصفت بأنها "صرخة عبقرية قلما نسمع مثلها في شعرنا المعاصر".[٣]

يا حبيبي كيف ذاك الحب مات ** عندما دبت به روح الحياة ؟

وفي حين خاطب ناجي نفسه بألم :

أيها الشاعر تغفو ** تذكر العهد وتصحو

وإذا ما التام جرح ** جد بالتذكار جرح

فتعلم كيف تنسي ** وتعلم كيف تمحو؟

يدغدغ الشاعر الأمير محبوبه بذكريات الأمس لعل الذكري تنجب صفواً بعد هجر:

يا حبيبي ذكريات الأمس تهفو ** أبداً أصحو عليهن وأغفو

---

(١) المجموعة الكاملة ص ٤٩ وما بعدها.

(٢) ذاته ص ٨٣ وما بعدها.

(٣) جدد وقدماء ص ٣٠٦.